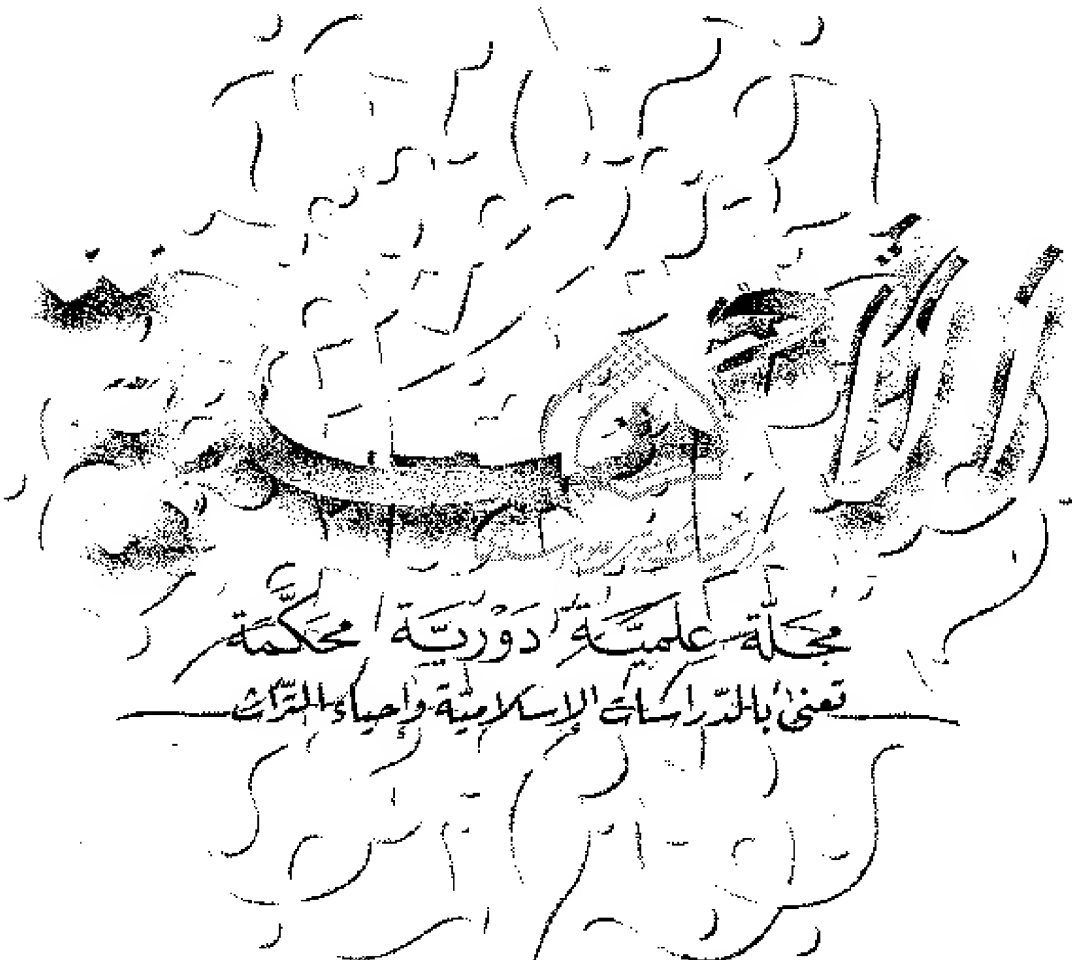


العدد الحادي عشر : جمادى الأولى ١٤٤٣ هـ - يوليو تموز ٢٠٢٢ م



مجلّة علميّة ودوريّة محكمة
تعنى بالدراسات الإسلامية وإحياء التراث

المشرف العام ورئيس التحرير

الأستاذ الدكتور أحمد محمد نور سيف

مدير عام دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث

رئيس مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي

مدير التحرير

الدكتور عبد الحكيم الأنيس

هيئة التحرير

الدكتور بدوي عبد الصمد

الدكتور محمود أحمد الزين

الدكتور نور الدين صغيسري

أخواء على ظهور علم المناسبة القرآنية

د. عبد الحكيم الأنيس*

التعريف بالبحث:

يتناول هذا البحث الكلام على ظهور علم المناسبة القرآنية، وتصحيح أخطاء شائعة في تاريخه، وذلك أن الزركشي نقل في «برهانه» عن الإمام أبي الحسن الشهرستاني قوله: «أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم تكن سمعناه من غيره الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري...».

فجاء السيوطي وتصرف في هذه العبارة كثيراً، ومن ذلك قوله: «أول من سبق إلى هذا العلم». ثم أتى محقق «البرهان» وترجم للنيسابوري على أنه الإمام الحافظ عبد الله بن محمد ابن زياد الشافعي (المتوفى سنة ٣٢٤ هـ) وتابعه كل من كتب في هذا، مع إغفالهم ترجمة أبي الحسن الشهرستاني، غير باحث واحد ترجم للنيسابوري على أنه الإمام المقرئ محمد بن عبدوس (المتوفى سنة ٣٣٨ هـ) وحكم على الشهرستاني بالجهالة! وهذا البحث يبين أن أبا بكر النيسابوري المذكور في كلام الشهرستاني لم يسبق إلى هذا العلم كما ظن السيوطي ومتابعوه، وأن دوره ينحصر في إظهار هذا العلم في بغداد، وأنه ليس ابن زياد ولا ابن عبدوس، ويذكر أن المعروفين باسم (أبي بكر النيسابوري) كثيرون، وأن المقصود منهم هنا عالم من علماء القرن السابع الهجري، لأن الذي رآه ووصفه وهو أبو الحسن الشهرستاني توفي سنة (٦٧٢ هـ)، وهو عالم من علماء بغداد الكبار، وليس مجهولاً كما تسرع البعض في الحكم عليه.

وفي ضوء هذه النتائج يقرر البحث أن التأريخ لظهور علم المناسبة - باعتباره علماً - في مطلع القرن الرابع الهجري - تبعاً لما سبق - غير صحيح. ويدعو إلى إعادة النظر في تاريخه ومراحلته، وإلى نسبة الفضل لأهله، ويعرض ما توصل إليه في هذا المجال، إلى غير ذلك مما اقتضاه البحث من مناقشات وتساؤلات. ومن الله التوفيق.

* باحث أول في دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي، ولد عام (١٣٨٥ / ١٩٦٥)، وحصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من كلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد بدرجة امتياز عام (١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م)، درس في جامعتي صنعاء وبغداد وغيرهما، وله عدة بحوث ومحققات.

المقدمة

من المتفق عليه أن الكشف عن تاريخ العلوم : نشأتها وتطورها والمراحل التي مرت بها من الأمور المهمة في فهم هذه العلوم وتصورها واستيعابها ، ومعرفة الظروف التي أحاطت بها ، وأثرت فيها .

ومن علوم القرآن التي تلقى اهتماماً كبيراً في هذا العصر : علم المناسبة بين آياته وسوره ، ويعرف بأنه علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه^(١) ، وهو ما أدى إلى ما يسمى بـ « النظام » و « الوحدة الموضوعية » .

وقد كتب الباحثون في تاريخ هذا العلم ، في دراساتهم التي تناولته ، سواء كانت في التقديم لكتب قديمة فيه ، أو في كتب تدرس علوم القرآن ، أو في بحوث خاصة .

وفي تبعية لتاريخ هذا العلم لحظت أخطاء كبيرة وقع فيها الدارسون والباحثون وهم يؤرخون لهذا العلم ويتكلمون على ظهوره ، فأجبت أن أصححها في هذا البحث ، من خلال نص مهم في هذا الباب ، قاله أبو الحسن الشهرابي عن الإمام أبي بكر النيسابوري ، هذا النص الذي تُصرّف في عباراته في ستة مواضع ، وقدم على زمانه ثلاثة قرون ، وحمل ما لا يحتمل ، ولم يعرف المقصود به ، بل جهل قائله أيضاً .

وتفصيل القول في ذلك يأتي في المطالب الآتية :

المطلب الأول : في ذكر كلام أبي الحسن الشهرابي وما حصل فيه من تصرف .

المطلب الثاني : محاولات التعريف بأبي بكر النيسابوري .

المطلب الثالث : التعريف بأبي الحسن الشهرابي .

المطلب الرابع : علم المناسبة في النصف الأول من القرن السابع وصدى إظهاره .

المطلب الخامس : تساؤلات يثيرها قول الشهرابي .

الخاتمة : رأي أولي في أولية علم المناسبة .

نتائج البحث .

(١) نظم الدرر للبقاعي ٦/١ .

المطلب الأول

في ذكر كلام أبي الحسن الشهرابي وما حصل فيه من تصرف

من أخطر الأمور النقل عن الآخرين بتصرف وتغيير واختصار ، ويجب على من يؤثر هذه الطريقة الثاني والتريث والتفكير قبل أن يفعل هذا ، حتى لا يقع منه ما يكدر النص المنقول ، ومن التصرف الذي وقع للإمام السيوطي (ت ٩١١هـ) - وفيه ما يقبل وما لا يقبل - قوله في كتابه « الإلتقان »^(١) وهو يتحدث عن علم مناسبة الآيات والسور : « قال ابن العربي . . . وقال غيره : أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري ، وكان غزير^(٢) العلم في الشريعة والأدب ، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه :

- لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟

- وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟

وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة .

وأورد هذا النص في كتابه « معترك الأقران »^(٣) من غير عزو ، وبدأه بقوله : « وأول

من سبق إلى هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابوري ، وكان كثير العلم . . . » .

ونعود إلى « البرهان » للزركشي (ت ٧٩٤هـ) - لما هو معلوم من أن السيوطي بنى

« الإلتقان » عليه - فنجد النص فيه هكذا^(٤) : « قال الشيخ أبو الحسن الشهرابي^(٥) :

أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، ولم نكن سمعناه من غيره : الشيخ الإمام أبو بكر

النيسابوري ، وكان غزير العلم . . . » .

(١) النوع (٦٢) ٣/٣٢٢ .

(٢) في « الإلتقان » : عزيز . وهو خطأ مطبعي .

(٣) ٤٣/١ - ٤٤ .

(٤) النوع (٢) ١/١٣٢ .

(٥) لم يذكر الزركشي موضع كلامه الذي نقل منه ، ولو فعل لساعد في القضاء على كثير من اللبس الذي حصل من بعده ، ولم يذكر شيئاً من كتبه - وسيأتي ذكرها - ولم ينقل عنه في غير هذا الموضع .

ملحوظات على نقل السيوطي :

نلاحظ على نقل السيوطي أنه تصرف في ستة مواضع ، وبعض هذه التصرفات ليس له كبير أثر ، ولكن بعضها الآخر في غاية الخطورة ، وهذه هي :

الأول : أنه حذف اسم القائل (أبي الحسن الشهرابي) ، وذكره في غاية الأهمية كما سيأتي معنا .

الثاني : حذف ذكر المكان الذي وقع فيه هذا الإظهار : (بغداد) والنص عليه أساسي لما ستعلم .

الثالث : حذف قول الشهرابي : « ولم تكن سمعناه من غيره » .

الرابع : حذف وصف النيسابوري بـ « الإمام » .

الخامس : غير فيه لفظة « غزير » إلى « كثير » .

السادس : أنه في « معترك الأقران » لم ينسب القول إلى قائله ، وغير عبارة الشهرابي : « أول من أظهر ببغداد علم المناسبة » إلى قوله : « أول من سبق إلى هذا العلم » .

وهكذا انتقل النص من الكلام على إظهار النيسابوري علم المناسبة في بغداد إلى الحكم بأسبقيته المطلقة إلى هذا العلم^(١) ، وهذا غير صحيح - كما سيأتي -^(٢) .

(١) يذكر هنا أنه لم يتعرض لمن سبق إلى هذا العلم في كتابه : الوسائل إلى معرفة الأوائل . كما يذكر أنه كان في كلامه على النوع الثالث والستين وهو التشابه اللفظي أدق حين قال ٣/٣٣٩ : « أفرد بالتصنيف خلق ، أولهم - فيما أحسب - الكسائي » ، فقوله : « فيما أحسب » احتياط جيد . وقد بين الدكتور حازم سعيد حيدر في كتابه القيم : « علوم القرآن بين البرهان والإتقان » ص ١٥٤ - ١٥٥ أن هذا الحسبان منتقض ، وذكر ما ينقضه ، وقال - مشكوراً - : « . . . إن إطلاق أوليات التأليف في الفنون يحتاج إلى تتبع واستقراء تام » .

(٢) وانظر لزماً تعليل تصرف السيوطي في عبارة الشهرابي في آخر المطلب الثالث .

وترتب - بناء على هذا - أن عُدَّ النيسابوري مؤسس هذا العلم، ثم ترجم على أنه الحافظ عبد الله بن محمد بن زياد لدى جميع الدارسين^(١) عدا واحداً ترجمه على أنه المقرئ محمد بن عبدوس بن أحمد ، ثم أُرْخ لظهور هذا العلم بمطلع القرن الرابع الهجري لدى الجميع^(٢) ! .

* * *

(١) انظر من ذلك : الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره (رسالة دكتوراه) للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم ص ٣٨ و ٤١ و ٢٣٥ ، والتناسب البياني في القرآن (رسالة دكتوراه) للدكتور أحمد أبو زيد ص ٣٤ ، والإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن (رسالة دكتوراه) للدكتور محمد يوسف الشريجي ص ٣٥٢ .

(٢) وما جاء في تفسير « الأساس » ٢٤/١ : « كان البقاعي . . . يلوم علماء بغداد لإهمالهم الكلام في هذا الشأن » فهو سهو خاطر ، والمقصود النيسابوري هذا .

المطلب الثاني

محاولات التعريف بأبي بكر النيسابوري

عرفنا من النص السابق أن لأبي بكر النيسابوري شأنًا مهمًا إذ كان هو الذي أظهر ببغداد علم المناسبة، فمن يكون هذا الرجل ؟

الواقع أن الزركشي والسيوطي وعدداً من ذكر النيسابوري من بعدهما^(١) لم يذكروا عن النيسابوري أي شيء يعرف به^(٢)، لكن قد نجد إشارة لدى الشيخ طاهر الجزائري إلى أنه متأخر، فبعد أن قال : « لم يشتغل المتقدمون بعلم المناسبات ... » ، قال : « وقد خالفهم في ذلك كثير من المتأخرين ، فرأوا أن الاشتغال به من الأمور المهمة » ، وهنا

(١) وذلك مثل :

- المؤرخ طاش كبري زاده (ت ٩٦٨هـ) في « مفتاح السعادة » ٤٨٠/٢ .
- والعلامة طاهر الجزائري (ت ١٣٣٨هـ) في « التبيان » ص ٢٩٧ .
- والمفسر عبد الحميد الفراهي الهندي (ت ١٣٤٩هـ) في « فائحة تفسير نظام القرآن » ص ٣ .
- والشيخ قاسم القيسي البغدادي (ت ١٣٧٥هـ) في « تاريخ التفسير » ص ١١٦ .
- والسيد عبد المتعال الصعيدي (ت ١٣٧٧هـ) في كتابه « النظم الفني في القرآن » ص ٥ .
- والأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز (ت ١٣٧٨هـ) في « النبأ العظيم » ص ١٩٩ .
- والأستاذ الدكتور محمد فاروق النبهان في كتابه « مقدمة في الدراسات القرآنية » ص ٢٠٠ .

(٢) وهناك من تجاوز ذكر النيسابوري أصلاً :

- كالقنوجي (ت ١٣٠٧هـ) في « الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم » .
- والشيخ مناع القطان - رحمه الله - في « مباحث في علوم القرآن » .
- والسيد محمد بن علوي المالكي في « زبدة الإتيان في علوم القرآن » .
- والدكتور القصبي محمود زلط في كتابه « مباحث في علوم القرآن » .
- والدكتور إبراهيم بن سليمان آل هويمل في بحثه « علم المناسبات بين المانعين والمحيزين » المنشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد (٢٥) ، وغيرهم .

قال : « وأول من أظهر علم المناسبة ببغداد الشيخ أبو بكر ... »^(١) ، فهل يقصد الشيخ طاهر أن النيسابوري متأخر ؟ ربما ، وربما انتهى كلامه الذي كان فيه ، واستأنف فقرة أخرى فقال : « وأول من أظهر . . . » .

وهنا يقال أيضاً : ما الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين عنده ؟

* * *

هذا ، وقد بقي هذا الرجل (أبو بكر النيسابوري) غير معروف إلى هذا العصر ، ولكنه حين عُرِّفَ به وضعت له ترجمتان ليستا له ، وإنما هما لعالمين آخرين ، وهكذا اختلف فيه على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه الإمام عبد الله بن محمد بن زياد :

وأول من ذهب إلى هذا محقق « البرهان » للزركشي في نشرته الأولى : الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، وهذا نص ترجمته له : « هو عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري الفقيه الشافعي الحافظ ، رحل في طلب العلم إلى العراق والشام ومصر ، وقرأ على المزني ، ثم سكن بغداد ، وصار إماماً للشافعية بالعراق ، وتوفي سنة ٣٢٤ هـ »^(٢) .
وتابعه على هذا - وأذكرهم حسب تسلسل كتبهم - : الدكتور صبحي الصالح^(٣) ، والدكتور محمد القاسم^(٤) ، والدكتور زاهر بن عواض الأملعي^(٥) ،

(١) التبيان ص ٢٩٧ .

(٢) البرهان ٣٦/١ وتحت يدي الطبعة الثانية المؤرخة بـ ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م ، ولكن تاريخ مقدمة الطبعة الأولى هو : ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

(٣) في كتابه « مباحث في علوم القرآن » ص ١٥١ ، ط ٥ ، ١٩٦٨ م .

(٤) في كتابه « الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره » ص ٣٧ ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .

(٥) في كتابه « دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم » ص ٧٨ ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

والأستاذ علال الفاسي^(١)، والدكتور سعيد الفلاح^(٢)، ومحققو « البرهان » للزركشي في نشرته الثانية : الدكتور يوسف المرعشلي والشيخان جمال الذهبي وإبراهيم الكردي^(٣)، والدكتور أحمد أبو زيد^(٤)، والدكتور محمد يوسف الشرجي^(٥)، والأستاذ الدكتور نور الدين عتر^(٦)، والأستاذ بسام محمد بارود^(٧)، وغيرهم .

وقد رجعوا في مجموعهم إلى : تاريخ بغداد ١٠/١٢٠، الباب لابن الأثير ٣/٢٥٢، سير أعلام النبلاء ١٥/٦٥، تذكرة الحفاظ ٣/٨١٩، غاية النهاية في طبقات القراء ١/٤٤٩، شذرات الذهب ٢/٣٠٢، كشف الظنون ٢/١٦٣٦، هدية العارفين ١/٤٤٥ .
القول الثاني : أنه « محمد بن عبدوس بن أحمد بن الجنيد ، أبو بكر المقرئ المفسر الواعظ النيسابوري ، إمام فاضل عالم بمعاني القرآن . توفي سنة ٣٣٨ هـ .
ذهب إلى هذا الأستاذ محمد شعباني^(٨)، ورجع في الترجمة إلى طبقات المفسرين للداوودي ٢/١٩١ .

-
- (١) في كتابه « المدخل لعلوم القرآن والتفسير » ص ٤١، وجاء فيه « الشايبوري » بدل « النيسابوري » .
(٢) في تقديمه لـ « البرهان في تناسب سور القرآن » لابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) ص ٦٢، وطبع الكتاب سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، وأرخت وفاة النيسابوري فيه : ٤٢٣ هـ وهو خطأ مطبعي .
(٣) جاءت ترجمتهم له في الملحق بالجزء الأول ١/٥٣٤، وبين يدي الطبعة الثانية من تحقيقهم ، وهي مؤرخة بـ ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م ، لكن تصدير الكتاب مؤرخ بـ ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .
(٤) في كتابه « التناسب البياني في القرآن : دراسة في النظم المعنوي والصوتي » ص ٣٤ ، وأصله أطروحة دكتوراه أجزت في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس في الرباط عام ١٩٩٠ م .
(٥) في كتابه « الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن » ص ٣٥٢ ، وأصله أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه أجزت في جامعة الزيتونة عام ١٩٩٣ م ، وفي تقديمه لرسالة السيوطي « مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع » التي نشرت في مجلة الأحمدية بدبي ، العدد (٤) سنة ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ص ٧٨ .
(٦) في بحثه « علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم » المنشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ، العدد (١١) سنة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م ، ص ٨٦ .
(٧) في تعليقه على « تفسير الفاتحة الكبير » من « البحر المديد » لابن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ) ص ١٢٥ .
(٨) في تقديمه لـ « البرهان في ترتيب سور القرآن » للغرناطي المذكور ص ٧٢ ، وتاريخ مقدمة الكتاب : ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

القول الثالث : أنه يحتمل أن يكون هو « العالم الواحد » الذي ذكره أبو بكر ابن العربي (ت : ٥٤٣هـ) في كتابه « سراج المريدين » ، وذلك في قوله^(١) :

« ارتباط أي القرآن بعضه ببعض ، حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني ، منتظمة المباني ، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة . . . » .
ذهب إلى هذا الاحتمال السيد عبد الله بن الصديق الغماري (ت ١٤١٣هـ)^(٢) ، وهو محاولة منه لبيان المبهم في قول ابن العربي ، وكان دقيقاً فلم يجزم بشيء ، كما أنه لم يذكر شيئاً عنه . وسنعلم مما نذكره أنه ليس هو .

وأعود إلى القولين السابقين لأقول : على أي شيء يا ترى اعتمد الأساتذة الأجلاء المذكورون في تحديد شخصية أبي بكر النيسابوري المذكور هنا بأنه الحافظ ابن زياد أو المقرئ ابن عبدوس ؟

وهل يكفي أن نجد رجلاً يعرف بـ « أبي بكر النيسابوري » لنجزم أنه المراد ؟ وما الذي يجعل « ابن زياد » أولى من « ابن عبدوس » أو الثاني أولى من الأول ؟ على أن الأمر لو اقتصر على الترجيح بينهما لكان ابن عبدوس أولى ، فقد ذكر عنه ما يرشحه لذلك ، وترجم في « طبقات المفسرين » بخلاف ابن زياد الذي لم يذكر عنه سوى براعته في الحديث والفقه^(٣) ولم يرد له ترجمة في الكتب المعنية بالمفسرين^(٤) .

(١) نقله الزركشي في « البرهان » ١٣٢/١ ، وتابعه السيوطي في « الإتيان » ٣٢٢/٣ .

(٢) في كتابه « جواهر البيان في تناسب سور القرآن » ص ١٨ .

(٣) انظر - بالإضافة إلى ما ذكر من مصادر ترجمته - طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٣ ، المنتظم ٢٨٦/٦ ، تاريخ الإسلام ١٥٠/٢٤ ، العبر ٢٠١/٢ ، مرآة الجنان ٢٨٨/٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣١٠/٣ ، البداية والنهاية ٢٤٥/١١ ، النجوم الزاهرة ٢٥٩/٣ ، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٤١ .

وذكر له من الكتب : كتاب « الأبواب » ، و« الفوائد الزيادات » في ثلاثة أجزاء و« جزء من حديث ابن زياد » قال ابن حجر : وهذا الجزء داخل كله في « الزيادات » الثلاثة التي ذكرت قبل ، سرى ثلاثة أحاديث من آخره . انظر : المعجم المفهرس : الأرقام (٣٦) و(١٢٣٤) و(١٢٣٥) .

وله : « الزيادات على مختصر المزني في فروع الشافعية » ، ذكره في كشف الظنون ١٦٣٦/٢ .

(٤) للسيوطي والداوودي والأدنه وي وعادل نويهض .

ثم إن المعروفين بهذه الكنية والنسبة (أبي بكر النيسابوري) كثيرون، وقد عُدَّت منهم - غير هذين المذكورين هنا - خمسة عشر رجلاً^(١)، فما الذي يجعلنا نعدل عن واحد

(١) وهؤلاء هم :

- أبو بكر النيسابوري : محمد بن إبراهيم (ت ٣١٠هـ)، له « تفسير » . كشف الظنون ٤٦٠/١، وفي النبلاء ٤٩٢/١٤ أرخت وفاته ب(٣١٨هـ) .
- أبو بكر النيسابوري : محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت ٣١١هـ)، الإمام الحافظ المعروف . الوافي بالوفيات ١٩٦/٢ .
- أبو بكر النيسابوري : محمد بن الحسين بن الحسن (ت ٣٣٢هـ)، الشيخ الصالح مسند نيسابور . الوافي بالوفيات ٣٧٢/٢ .
- أبو بكر النيسابوري : محمد بن عمر بن حفص (ت ٣٣٥هـ)، الإمام الزاهد المعمر العابد . النبلاء ٣٧٦/١٥ .
- أبو بكر النيسابوري : محمد بن داود بن سليمان (ت ٣٤٢هـ)، الزاهد شيخ الصوفية ، أحد الأئمة في الحديث والتصوف . الوافي بالوفيات ٦٣/٣ ، معجم المؤلفين ٢٩٦/٩ .
- أبو بكر الصبغي النيسابوري : محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٣٤٤هـ)، من أعيان فقهاء الشافعيين ، كثير السماع والحديث . طبقات الفقهاء الشافعيين لابن الصلاح ١٩٧/١ .
- أبو بكر الصبغي النيسابوري : أحمد بن إسحاق بن أيوب (ت بعد ٣٤٠هـ)، أحد أئمة الشافعية ، له تصانيف . التعليقات السننية على الفوائد البهية ص ٢٤٧ .
- أبو بكر النيسابوري : محمد بن أحمد بن جعفر (ت قبل ٣٦٠هـ)، من أفتى مشايخ نيسابور . لواقع الأنوار ١٢٥/١ .
- أبو بكر النيسابوري : أحمد بن الحسين بن مهران (ت ٣٨١هـ)، المقرئ المؤلف في القراءات . معرفة القراء الكبار ٣٤٧/١ ، غاية النهاية ٤٩/١ .
- أبو بكر النيسابوري : أحمد بن الحسن بن أحمد (ت ٤٢١هـ)، الإمام العالم المحدث ، مسند خراسان ، قاضي البقضاة . النبلاء ٣٥٦/١٧ .
- أبو بكر النيسابوري : محمد بن أحمد الشهير بالصالح ، (ت ٤٥٣هـ)، له « تفسير » . طبقات المفسرين للأدنه وي ص ٢٦٢ .
- أبو بكر النيسابوري : أحمد بن علي بن عبد الله (ت ٤٨٧هـ)، كان فاضلاً عارفاً باللغة والأدب ومعاني الحديث . النبلاء ٤٧٨/١٨ .

☞

منهم إلى ابن زياد أو ابن عبدوس ؟ وألا يحتمل أن يكون المراد واحداً من أولئك ؟

لا بُدَّ هنا من مرجح يرجح أحد هؤلاء ، وهذا المرجح أحد أمرين :

الأول : أن ينص في ترجمته على إظهاره لعلم المناسبة ، إذ مثل هذا لا يسكت عليه .

والثاني : معرفة ترجمة أبي الحسن الشهرابي ، والأمر الأول غير حاصل ، ولكن الأمر الثاني معلوم ، فأبو الحسن الشهرابي من أهل القرن السابع الهجري ، إذا عرفنا هذا توصلنا إلى أن النيسابوري المقصود من أهل هذا القرن أيضاً ، وبالتالي فلا بد من استبعاد كل من لم يكن من أهل هذا القرن .

وكان ينبغي قبل الوصول إلى أحد هذين الأمرين أن يقال : لعله فلان . فأما الجزم

هكذا بغير دليل فهو موضع نظر .

وتقع المسؤولية الأولى على محقق « البرهان » الأول - رحمه الله وغفر له وجزاه خيراً على جهوده - وقد تابعه الدارسون وثوقاً به^(١)، ولعل الذي جعله وجعلهم يثقون بهذه الترجمة تصرف السيوطي في النص الذي قدمته ، ولا سيما تعبيره بـ « وأول مَنْ سبق إلى هذا العلم » بدل قول الشهرابي : « أول من أظهر ببغداد علم المناسبة » .

وهكذا - على مدى نصف قرن تقريباً - اعتقد أن النيسابوري هو الحافظ ابن زياد - إلا عند الأستاذ محمد شعباني الذي ذهب إلى أنه المقرئ ابن عبدوس ، والفرق يسير

- أبو بكر النيسابوري : أحمد بن سهل السراج (ت ٤٩١هـ) ، وكان فقيهاً ورعاً عابداً صالحاً . تاريخ الإسلام للذهبي ٨٤/٣٤ .

- أبو بكر النيسابوري ثم البغدادي : محمد بن سعيد بن الموفق (ت ٦٤٣هـ) ، مسند بغداد . تاريخ الإسلام ٢٠٥/٤٧ ، ذيل تاريخ مدينة السلام ببغداد لابن الديلمي ٢٨٣/١ .

- أبو بكر النيسابوري : ابن محمد بن أبي الفتح (القرن السابع أو الثامن) ، أحد الأئمة ، الجواهر المنضية ١٠٧/٤ .

(١) ومثل هذا وهمه في ترجمة أبي الحكم بن بركان المفسر (ت ٥٣٦هـ) ، فقد وضع له ترجمة حفيده (ت ٦٢٧هـ) ! انظر : البرهان ١٨/١ ، وتابعه على ذلك آخرون . ولا مجال لبيان هذا .

إذ الرجلان متقاربان في تاريخ الوفاة - ، كما اعتقد أنه السابق إلى هذا العلم من عصر السيوطي إلى الآن فغمط حق الآخرين ، وهذا كله غير صحيح ، فليس النيسابوري ابن زياد ، ولم يسبق إلى هذا العلم إذ كان في القرن السابع ، نعم إنه أظهر ببغداد هذا العلم ولم يكن لعلمائها عناية به .

أعود وأقول : إذا كان النيسابوري المقصود من أهل القرن السابع فقد عرفنا من أهل هذا القرن اثنين ، الأول على سبيل الجزم ، والثاني على سبيل الاحتمال ، فهل يكون أحدهما هو الذي نريد ؟ ننظر :

فالأول هو : محمد بن سعيد بن الموفق (ت ٦٤٣هـ) ، والمذكور عنه الحديث والتصوف لا غير^(١) ، ثم إنه ولد في بغداد فهو من أهلها وعلمائها ولا ينطبق عليه قول الشهراباني : « وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة »^(٢) .

والثاني : أبو بكر بن محمد بن أبي الفتح النيسابوري .

وهذا ترجم له القرشي في « الجواهر المضية »^(٣) فقال : « أحد الأئمة ، له « الأوضح » في الفقه ، في مجلدين ، على « الهداية » وقفت عليه « ولم يزد على ذلك »^(٤) .

وصاحب « الهداية » توفي سنة (٥٩٣هـ) فيكون المترجم بعده ، والقرشي توفي سنة (٧٧٥هـ) فيكون المترجم قبله ، فمن المحتمل أن يكون من أهل القرن « السابع »

(١) انظر ترجمته في : ذيل تاريخ مدينة السلام لابن الديشي ٢٨٣/١ ، وتاريخ الإسلام ٢٠٥/٤٧ ، وتذكرة الحفاظ ١٤٣٢/٤ ، والنبل ١٢٤/٢٣ ، والإشارة إلى وفيات الأعيان ص ٣٤٦ ، والإعلام بوفيات الأعلام ص ٢٨٦ ، والعبر ١٧٩/٥ ، والمعين في طبقات المحدثين ص ٢٠٣ ، والنجوم الزاهرة ٣٥٥/٦ ، وشذرات الذهب ٣٩١/٧ .

(٢) والذي يؤكد كون أبي بكر النيسابوري ليس من علماء بغداد عدم وجود ترجمة له ، ولو كان من أهلها لعرف وترجم .

(٣) ١٠٧/٤ .

(٤) ومثل هذا في تاج التراجم ص ٣٣٤ .

أو « الثامن » وفي كلا الحالين لا نستطيع البت بشيء لقلة المعلومات الموجودة عنه^(١).
وهكذا يبقى هذا الرجل مجهول الترجمة - على كثرة ما بحثت عنه - .

لكنني رأيت في « الفلك الدائر على المثل السائر » لعبد الحميد ابن أبي الحديد (٥٨٦ - ٦٥٦ هـ) - عصري الشهرا باني - رأيت كلاماً فيه ذكر رجلٍ لعل المقصود به أبو بكر النيسابوري هذا ، وهذا الرجل مذكور في سياق نقد ابن أبي الحديد لابن الأثير (٥٥٨ - ٦٣٧ هـ) مصنف « المثل السائر » ، ومن المفيد نقل هذا النص على طوله - وأعتذر عن ذلك - لتتضح الصورة^(٢) :

قال ابن أبي الحديد^(٣) : « قال المصنف [ابن الأثير] في باب العام والخاص : إنه تعالى قال : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٧] ولم يقل بضوئهم ، لأن الضوء نور وزيادة .

فلو قال بضوئهم لكان المعنى يُعطي ذهاب تلك الزيادة ، وبقاء ما يسمى نوراً ، لأن الإضاءة هي فرط الإنارة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ﴾ [يونس : ٥] فكل ضوء نور ، وليس كل نور ضوءاً ، فقال سبحانه : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ لأنه إذا أزال النور فقد أزال الضوء أصلاً^(٤) .

أقول [القائل ابن أبي الحديد] : إن هذا الرجل قد شحن كتابه بأمثال هذه الترهات ، وأطال فيها وأسهب ، وأعجب بها ، وظن أنه أتى بغريب .

(١) ولا بد من الإشارة إلى أن اسمه جاء في نسخة من الجواهر المضية : « أبو بكر محمد بن أبي الفتح ... » وكذا في كشف الظنون ٢٠٢/١ ، ولم يذكروا له تاريخ وفاة .

(٢) نقل هذا النص الشيخ طاهر الجزائري في « التبيان » ص ٢٩٨ - ٢٩٩ في كلامه على من نقد علم النسابة ، ولم يقف عنده ، ولم يكن من غرضه الكشف عن النيسابوري .

(٣) الفلك الدائر (مع المثل السائر) ٢٣١/٤ - ٢٣٣ . ويذكر أنه كتبه في شهر ذي الحجة سنة ٦٣٣ هـ كما قال في مقدمته ٣٤/٤ .

(٤) المثل السائر ٢١٠/٢ .

وهذه المعاني قد صنفت فيها الكتب الكثيرة ، وتكلف الناس من قبله في استنباط أمثال هذه الوجوه الغامضة والمعاني الخفية من القرآن العزيز ، وإنه لم أتى بهذه اللفظة دون تلك ؟ ولم قدم هذا وآخر هذا ؟ وقد قيل في هذا الفن أقوال طويلة عريضة أكثرها بارد غث ، ومنها ما يشهد العقل وقرائن الأحوال أنه مراد .

وقد ورد إلينا في مدينة السلام في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة رجل من وراء النهر كان يتعاطى هذا ، ويحاول إظهار وجوه نظرية في هذه الأمور في جميع آيات الكتاب العزيز ، نحو أن يقول في قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ [الأنبياء : ٢] :

لم قال : ﴿ ما ﴾ ولم يقل (لا) ؟ ولم قال : ﴿ يأتيهم ﴾ ولم يقل : (يجيئهم) ؟ ولم قال : ﴿ من ذكر ﴾ ولم يقل : (من كتاب) ؟ ولم قال : ﴿ من ربهم ﴾ ولم يقل : (من إلههم) ؟ ولأي حال قال في موضع آخر ﴿ من الرحمن ﴾ ؟ [الشعراء : ٥] وما وجه المناسبة في تلك الآية في لفظها وسياقة كلامها وبين لفظة ﴿ الرحمن ﴾ ؟ وما وجه المناسبة بين هذه الآية وسياقها ؟ وبين لفظة ﴿ ربهم ﴾ ^(١) . وعلى هذا القياس .

وكذلك كان يتكلف تعليل كل ما في القرآن من الحروف التي تسقط في موضع وتثبت في موضع ، نحو قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم ﴾ [الملك : ١٩] وقوله : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله ﴾ ^(٢) [النحل : ٤٨] لم أثبت الواو هناك ، وأسقطها هاهنا ، ونحو قوله : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ [النساء : ١١٥] وقوله :

(١) في البرهان للكرمانى ص ٢٦٦ كلام على هذه الجزئية الأخيرة ، وهي ورود لفظ ﴿ ربهم ﴾ و ﴿ الرحمن ﴾ .

(٢) هكذا جاءت الآية في الفلك الدائر ، وسقط منها هناك حرف الواو من ﴿ أولم ﴾ ، وبإثباته لا يتحقق المقصود ، فلعل ابن أبي الحديد أراد الآية الأخرى في سورة النحل : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله ﴾ [٧٩] .

﴿ ومن يشاق الله ﴾ [الحشر : ٤] لم فكّ الإدغام في موضع ولم يفكه في موضع آخر ؟ .
وكنا نعجب منه ونستظرفه^(١) ، حتى وصل إلينا هذا الكتاب ، فقلنا إنه فوق كل ذي علم عليم » اهـ .

أقول : يظهر لي أن المعني هنا أبو بكر النيسابوري ، وإذا قيل : إن هذا يدخل في علم « متشابه القرآن » ؟ أقول : إن السيوطي يقول عن « المتشابه » : « هذا النوع يتداخل مع نوع المناسبات »^(٢) .

على أن قول أبي بكر النيسابوري : « لِمَ جُعِلَت هذه الآية إلى جنب هذه الآية . . . »
يحتمل أنه يريد البحث في الألفاظ والمعاني ، لا المعاني فقط .

ولا يعكر على هذا الاحتمال قول ابن أبي الحديد : « وهذه المعاني قد صنف فيها الكتب الكثيرة . . . » فلعله يخبر عن حال نفسه وإطلاعه ، والشهرابي يخبر عن حال نفسه وإطلاعه هو ومن حوله من العلماء ، ولعل ابن أبي الحديد بعد أن سمع كلام الوارد عليهم من وراء النهر تتبع من تكلم في هذا من العلماء قبل هذا الوارد وعرف الجهود السابقة فيه . على أن وجود مصنفات في هذا العلم لا يلزم منه علم علماء بغداد به ، ويدل لهذا قول ابن أبي الحديد : « وكنا نعجب منه ونستظرفه » .

ولنلاحظ أن مصطلح « المناسبة » ورد في قول الشهرابي وابن أبي الحديد معاً ، وقد يكون من المستبعد أن يكون كلامهما عن رجلين اثنين وردا بغداد مهتمين بهذا الجانب من علوم القرآن .

وعلى هذا فإذا صَحَّ ما ظهر لي من أن كلام الشهرابي وابن أبي الحديد يتوارد على رجل واحد ، فنكون قد استفدنا فائدتين :

(١) في « التبيان » : نستظرفه . من الطارف وهو الجديد .

(٢) الإتيان ، النوع (٦٣) ٣/٣٤٠ ، معترك الأقران ١/٦٦ . وانظر : التبيان للجزائري ص ٣٠٠ ، والتناسب البياني في القرآن ص ٣٧ .

الأولى : تأكيد ما قاله الشهرستاني عن غزارة علم النيسابوري في الشريعة والأدب^(١).

الثانية : تاريخ دخوله بغداد وهو سنة (٦٣٢هـ) .

وقد يقال : إن « نيسابور » ليست من بلاد ما وراء النهر^(٢) ، وابن أبي الحديد يقول : إن الرجل ورد من وراء النهر ؟ والجواب عن هذا سهل ، وهو أنه لا يلزم من نسبته إلى نيسابور أن يكون مقيماً بها ، كما لا يلزم من مجيئه من وراء النهر ألا يكون نيسابورياً .

* * *

(١) يقول أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ) في نزهة الألباء ص ٧٦ (ترجمة هشام ابن الكلبي) : « إن علوم الأدب ثمانية : النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصناعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم . . . » ولا بد لعلمي « تحليل المتشابه » و« المناسبات » من الضلالة بعدد من هذه العلوم .

(٢) انظر عن المقصود بـ « ما وراء النهر » معجم البلدان ٤٥/٥ .

المطلب الثالث

في التعريف بأبي الحسن الشهرابي

في ظل غياب المعلومات الكافية عن حياة أبي بكر النيسابوري أرى من المهم تسليط الضوء على حياة أبي الحسن الشهرابي الذي روى خبره وأثنى عليه وأشاد به، ففي التعريف به نوع تعريف بأبي بكر، ومعرفةً درجته في العلم والدين تزيدنا ثقة بشهادته له . ولا بد من القول : أن الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم سكت في تحقيق « البرهان » عن ترجمته - مع أنه نهج على ترجمة الإعلام - واكتفى بالتعليق على نسبته فقال^(١) : « منسوب إلى شهرابان ، قرية شرقي بغداد ، ينسب إليها كثير من العلماء » ، وأصل هذا التعريف بالقرية في معجم البلدان .

وكذلك اكتفى بمثل هذا التعليق الدكتور سعيد الفلاح ، ولكنه زاد قائلاً عن أبي الحسن : « مجهول »^(٢) ! وبذلك سد الباب أمام من تهمهم معرفته ، وليته ذكر لنا أين بحث عنه ، هذا إن لم يكن اعتمد على سكوت الأستاذ أبو الفضل . أما محققو « البرهان » الآخرون فقد قالوا^(٣) : « لعله ممن أخذ عن أبي بكر النيسابوري ، وهم جماعة ومنهم أبو الحسن الدارقطني » .

وهذا مبني على ظنهم أن أبا بكر هو الحافظ ابن زياد ، وقد كان من الآخذين عنه الدارقطني .

هذا كل ما بُذل للتعريف بأبي الحسن ، وهي جهود متواضعة أمام رجل إمام معروف بالعلم والدين ترجم له وذكر في أربعة وعشرين مصدرًا ومرجعًا^(٤) !

(١) البرهان للزركشي ٣٦/١ .

(٢) انظر مقدمات « البرهان » ص ٦٢ .

(٣) البرهان ١٣٢/١ .

(٤) وهذه الكتب هي - مرتبة حسب الوفيات - :

وسأترجمه هنا وأعتذر عن الإطالة فهي في نظري ضرورية لما أسلفت، ولأشياء أخرى
ترد بعد ذلك :

- تاريخ الكازروني (ت بعد ٧٠٠هـ) . نقل عنه الذهبي في النبلاء .
- معجم الدمياطي (ت ٧٠٥هـ) مخطوط - منه نسخة مخرومة عند الدكتور عبد الرحمن العثيمين .
- كتاب « الحوادث » لمؤلف من أهل القرن الثامن - وهو الكتاب المسمى غلطاً بـ « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة » المنسوب إلى ابن الفوطي ص ٤١٢ .
- بهجة الأسرار (في ترجمة الشيخ عبد القادر الكيلاني) للشطنوني (ت ٧١٣هـ) ص ٢٢٧ و ٢٢٩ .
- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب لابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ) ٢٣٠/٥ الترجمة ٢٣٩ . نقل عنه الدكتور ناجي معروف الآتي .
- معجم صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ) . نقل منه ابن رجب .
- المفتى للبرزالي (ت ٧٣٩هـ) . ذكره محقق « تاريخ الإسلام » .
- سير أعلام النبلاء ٢٨٦/١٧ (دار الفكر) - الجزء الذي كان مفقوداً .
- تاريخ الإسلام ١٠٢/٥٠ .
- تذكرة الحفاظ ١٤٦٣/٤ (وفيات سنة ٦٧١هـ) .
- الإعلام بوفيات الأعلام ص ٢٨٠ (وفيات سنة ٦٧٢هـ)
- المختار لابن رافع السلامي (ت ٧٧٤هـ)
- الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (ت ٧٩٥هـ) ٢٨٢/٢ - ٢٨٤ .
- ومختصر الذيل ص ٧٩ . ذكره محقق « تاريخ الإسلام » .
- ذيل التقييد للتقي الفاسي المكي (ت ٨٣٢هـ) ٢٢١/٢ .
- منتخب المختار للفاسي ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- المقصد الأرشد لابن مفلح (ت ٨٨٤هـ) ٢٦١/٢ .
- بغية الوعاة للسيوطي (ت ٩١١هـ) ٢٠٠/٢ .
- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعلمي (ت ٩٢٨هـ) ٣٠٠/٤ - ٣٠١ وذكر في ٢٣٣/٣ .
- الدر المنضد للعلمي (ت ٩٢٨هـ) ٤١٣/١ - ٤١٤ وهو مختصر من « المنهج الأحمد » .
- شذرات الذهب لابن العماد (ت ١٠٦٧هـ) ٥٨٧/٧ .
- هدية العارفين للبغدادي (ت ١٣٣٩هـ) ٧١٢/١ .
- تاريخ علماء المستنصرية للدكتور ناجي معروف (ت ١٣٩٧هـ) ١٠٨/١ - ١٠٩ .
- معجم المؤلفين لكحالة ٢٣١/٧ .

اسمه ونسبه ونسبته : هو علي بن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن وضاح بن أبي سعد محمد بن وضاح الشهرابي^(١) ثم البغدادي .
كنيته ولقبه : هو أبو الحسن كمال الدين .

ولادته : ولد في شهر ابان في رجب سنة ٥٩١ هـ - وقيل : سنة ٥٩٠ هـ .

طلبه العلم : عُني أبو الحسن بالرواية ، وسمع الكثير ، وكتب الخط المنسوب ، وبرع في العربية ، وفي المذهب الحنبلي ، وشارك في فنون من العلم ، ورحل في طلب العلم فسمع بإربل^(٢) وغيرها ، وكتب الطباق ، وقال ابن الفوطي : « كتب الكثير بخطه الرائق من الكتب المطولة والمختصرة »^(٣) .

شيوخه :

١ - أحمد بن محمد بن نجم المروزي : سمع منه « صحيح مسلم » في شهر ابان سنة نيف عشرة وستمائة ، وقد قدم عليهم حاجاً^(٤) . وهذا يعني أن دخوله بغداد كان بعد هذا التاريخ ، وكذلك دخول أبي بكر النيسابوري .

٢ - علي بن إدريس البعقوبي (ت ٦١٩ هـ)^(٥) ، وليس منه الخرقعة ، وانتفع به .

٣ - عمر بن كرم الدينوري (ت ٦٢٩ هـ)^(٦) : سمع منه « جامع الترمذي » .

(١) في معجم البلدان ٣/٣٧٥ : « شهر ابان - بالنون - قرية عظيمة ذات نخل وبساتين من نواحي « الخالص » في شرقي بغداد ، وقد خرج منها قوم من أهل العلم » وهي اليوم تابعة لمحافظة ديالى ، إحدى محافظات العراق . وتحرفت النسبة في هدية العارفين إلى « الشهير بابي كمال الدين » ، وفي النبلاء إلى « الشهرابي » ، وفي بهجة الأسرار ص ٢٢٧ إلى « الشهرابي » ! .

(٢) ولم يترجم في الجزء المطبوع من تاريخ إربل لابن المستوفي (ت ٦٣٧ هـ) .

(٣) تاريخ علماء المستنصرية ١/١٠٩ ، وهو ينقل عن تلخيص مجمع الآداب ٥/٢٣٠ .

(٤) للذهبي كلام في هذا الشيخ فانظره في النبلاء ١٧/٢٨٦ .

(٥) ترجمته في شذرات الذهب ٧/١٥٠ ، وبهجة الأسرار للشطنوفي ص ٢٢٧ - ٢٣٠ .

(٦) ترجمته في الشذرات ٧/٢٣٣ .

- ٤ - أبو حفص عمر السهروردي (ت ٦٣٢هـ)^(١).
- ٥ - القاضي أبو صالح نصر بن عبد الرزاق الجيلي (ت ٦٣٣هـ)^(٢).
- ٦ - أبو الحسن ابن روزبة (ت ٦٣٣هـ)^(٣).
- ٧ - أبو الحسن القطيعي (ت ٦٣٤هـ)^(٤): سمع منه ومن ابن روزبة « صحيح البخاري » .
- ٨ - عبد اللطيف ابن القُبيطي (ت ٦٤١هـ)^(٥).
- ٩ - إبراهيم الكاشغري (ت ٦٤٥هـ)^(٦).
- ١٠ - عبد الصمد بن أحمد ابن أبي الجيش (ت ٦٧٦هـ).
- قال ابن رجب في ترجمة عبد الصمد هذا^(٧): « . . . وكان شيوخ بغداد يقرأون عليه كتب الحديث ، وسمع الناس بقراءتهم ، كالشيخ كمال الدين بن وضاح ، مع علو شأنه وكبر سنه ، وقد توفي قبله » وهما صديقان كما سيأتي .
- وله إجازات من جماعة كثيرين فمن دمشق أجازته :
- ١١ - الشيخ موفق الدين ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ)^(٨).

(١) ترجمته في الشذرات ٢٦٨/٧ .

(٢) ترجمته في الشذرات ٢٨١/٧ .

(٣) ترجمته في الشذرات ٢٧٩/٧ .

(٤) ترجمته في الشذرات ٢٩٤/٧ .

(٥) ترجمته في التكملة لوفيات النقلة ٢٦٤/٣ وتحرف في الذيل ٢٨٣/٢ وشذرات الذهب ٥٨٧/٧ إلى :

ابن القطيعي ، وفي المقصد الأرشد ٢٦٢/٢ إلى : ابن البطي ! .

(٦) ترجمته في الشذرات ٣٩٩/٧ .

(٧) الذيل ٢٩٢/٢ - ٢٩٣ .

(٨) ترجمته في الشذرات ١٥٥/٧ .

١٢ - أبو عمرو ابن الصلاح^(١) (ت ٦٤٣هـ)، وغيرهما .
ونلاحظ أنه لم يذكر في شيوخه « أبو بكر النيسابوري » ، وعدم الوجود لا يدل على وجود العدم ، أو لعله اكتفى بمجالسته ولم يتلمذ له .
مؤلفاته : قال صاحب الحوادث : « له تصانيف كثيرة » ، وذكر ابن رجب له المؤلفات الآتية :

- الدليل الواضح في اقتفاء نهج السلف الصالح .
- الرد على أهل الإلحاد^(٢) .
- أجزاء في مدح العلماء وذم الأغنياء^(٣) .
- الفرق بين أحوال الصالحين وأحوال الإباحية^(٤) أكلة الدنيا بالدين^(٥) . سمعه منه أبو الحسن علي بن محمد البندنجي نزيل دمشق (ت ٧٣٦هـ) [في صفر سنة ٦٦٢هـ]^(٦) .
- جزء في أن الإيمان يزيد وينقص . كتبه سنة ٦٤٧ هـ جواباً عن سؤال فيمن حلف بالطلاق على نفي ذلك ، فأفتى بوقوع طلاقه ، وبسط الكلام في المسألة .

-
- (١) في الذيل : أبو محمد بن عمرو بن صلاح . وفي العبارة تحريف فصاحتها ، واسم أبي عمرو : عثمان ، ولقبه تقي الدين . انظر : وفيات الأعيان ٢٤٣/٣ ، وأبوه عبد الرحمن أبو القاسم صلاح الدين توفي سنة ٦١٨هـ . انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٧٥/٨ .
- (٢) هذا هو الصواب ، وبه ورد في منتخب المختار ، وشذرات الذهب ٥٨٨/٧ نقلاً عن ابن رجب ، وتحرف في هدية العارفين إلى : الاتحاد .
- (٣) في منتخب المختار ص ١٥٥ : جزء في مدح العلماء وذم الغناء . ومثله في المنهج الأحمد ٣٠١/٤ والدر المنضد ٤١٤/١ .
- (٤) في منتخب المختار والمنهج الأحمد : المباحية . وفي الدر المنضد : الباطنية ! .
- (٥) في منتخب المختار ص ١٥٥ : باسم الدين .
- (٦) من منتخب المختار ص ١٥٥ (ترجمة البندنجي) .

تلاميذته والراوون عنه : قال ابن رجب : « حدث الشيخ بالكثير ، وسمع منه خلق ، وروى عنه :

- ابن حصين الفخري [ت : ٧١٧هـ]^(١).
 - الحافظ الدمياطي [ت : ٧٠٥هـ]^(٢) في معجمه .
 - أبو الحسن البندنجي [ت : ٧٣٦هـ]^(٣).
 - إبراهيم الجعبري المقرئ [ت : ٧٣٢هـ]^(٤).
 - أبو الثناء الدقوقي [ت : ٧٣٣هـ]^(٥).
 - أحمد بن عبد السلام بن عكير البغدادي [ت : ٧٣٥هـ]^(٦).
 - علي بن عبد الصمد [ابن أبي الجيش ٦٥٦ - ٧٤٢هـ]^(٧).
 - أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن المؤذن الوراق . روى عنه « صحيح البخاري » .
- ويضاف على مَنْ ذكرهم ابن رجب :
- عز الدين الزرندي : يوسف بن الحسن الأنصاري الخزرجي (٦٥٦-٧١٢هـ)^(٨).
 - المؤرخ ابن الفوطي البغدادي (٦٤٢ - ٧٢٣هـ) قال في تلخيص مجمع الآداب^(٩):

-
- (١) ترجمته في معجم شيوخ الذهبي ص ٣٦٣ .
 - (٢) ترجمته في الشذرات ٢٣/٨ .
 - (٣) ترجمته في الشذرات ١٩٩/٨ .
 - (٤) ترجمته في الشذرات ١٧١/٨ .
 - (٥) ترجمته في الشذرات ١٨٦/٨ .
 - (٦) ترجمته في الشذرات ١٩١/٨ .
 - (٧) ترجمته في منتخب المختار ص ١٤٤ - ١٤٥ . والدرر الكامنة ٦٢/٣ . وتاريخ علماء المستنصرية ٢٥٣/١ .
 - (٨) منتخب المختار ص ٢٣٦ .
 - (٩) عن تاريخ علماء المستنصرية ١٠٩/١ .

« لي منه إجازة ، وكان صديق والدي ، وقد رأيتُه قبيل الواقعة [يقصد اجتياح بغداد سنة ٦٥٦هـ] ، وترددت إليه في خدمة والدي رحمهما الله » . وقد أسر ابن الفوطي في الواقعة ، ولم يعد إلى بغداد إلا في سنة (٦٧٩هـ)^(١) - بعد وفاة شيخه الشهراباني - .

- صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ)^(٢) .

- أبو بكر السلامي^(٣) .

أقوال العلماء والمؤرخين فيه :

- قال صاحب « الحوادث » : « كان شيخاً صالحاً زاهداً ورعاً عارفاً بالمذهب والأحاديث النبوية »^(٤) .

- وقال الكازروني (ت بعد ٧٠٠هـ)^(٥) في تاريخه : « كان منور الوجه ، عالماً بالمذهب » .

- وقال صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ)^(٦) : « كان شيخاً صالحاً ، منور الوجه ، كيساً ، طيب الأخلاق ، سمح النفس ، صاحب المشايخ والصالحين ، وكان عالماً بالفقه والفرائض والأحاديث ، ورتب عقب الواقعة مدرساً بالمدرسة « المجاهدية »^(٧) واستمر بها إلى أن مات » .

-
- (١) انظر ترجمته في صدر كتابه « تلخيص مجمع الآداب » ج٤ ، ق ١ ، ص ٢٣ .
- (٢) منتخب المختار ص ١٢٢ . والدرر الكامنة ٤١٨/٢ . وهو صاحب كتاب « مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » .
- (٣) منتخب المختار ص ٢٣٩ .
- (٤) ص ٤١٣ .
- (٥) ترجمه في الدرر الكامنة ١١٩/٣ ، والنقل بواسطة الذهبي في تاريخ الإسلام ١٠٢/٥٠ .
- (٦) من الذيل لابن رجب ٢٨٣/٢ .
- (٧) كمل بناؤها سنة (٦٣٧هـ) وتقع في الجانب الشرقي من بغداد ، ويرجع أن تكون في أرض محلة المربعة الحالية في شارع الرشيد ، وهي برسم الحنابلة ، انظر « الحوادث » والتعليق عليه ص ١٥٧ وفيه - نقلاً عن ابن رافع السلامي (ت ٧٧٤هـ) - أن هذه المدرسة كانت تعد في زمانه أكبر مدارس بغداد .

- وقال الذهبي في « النبلاء »^(١): « الإمام الأوحّد ذو الفنون ، الفقيه الحنبلي ، النحوي الفرضي ، مدرس « المجاهدية » ببغداد ، كان من بقايا الصلحاء الكبار ، له جلالة وشهرة . . . وكان صديقاً للشيخ يحيى الصرصري (ت : ٦٥٦ هـ شهيداً) ، وللشيخ عبد الصمد [ابن أحمد ابن أبي الجيش البغدادي ت : ٦٧٦ هـ] . »

وقال في « تاريخ الإسلام »^(٢): « الفقيه الحنبلي المحدث . وفي « تذكرة الحفاظ »^(٣): « مفتي بغداد » .

- وقال ابن رجب^(٤): « الفقيه المحدث الزاهد الكاتب » .

وقال ابن رافع^(٥): « الفقيه النحوي الكاتب المفتي المحدث الزاهد . . . كان صالحاً محدثاً ديناً خيراً ، له الشعر الفائق ، حسن الملتقى منور الوجه عارفاً بالمذهب من أعيان من بقي ببغداد بعد فتنة التتار » .

- وقال السيوطي^(٦): « الفقيه النحوي الكاتب الزاهد . كذا ذكره الحافظ الدمياطي في « معجمه » وأسند عنه حديثاً . ولم يذكر مولده ولا وفاته » .

وفاته : توفي ليلة الجمعة ثالث صفر سنة ٦٧٢ هـ - على الصحيح - ، وكانت جنازته إحدى الجنائز المشهودة ، اجتمع لها عالم لا يحصى ، وغلقت الأسواق يومئذ ، وشد تابوته بالحبال ، وحمله الناس على أيديهم ، وصُلي عليه بالمحال البرانية ، ودفن بحضرة قبر الإمام أحمد بن حنبل ، مقابل رجله^(٧).

(١) ٢٨٦/١٧ .

(٢) ١٠٢/٥٠ .

(٣) ١٤٦٣/٤ .

(٤) الذيل ٢٨٢/٢ .

(٥) منتخب المختار ص ١٥٣ .

(٦) بغية الوعاة ٢٠٠/٢ .

(٧) انظر : الذيل ٢٨٤/٢ .

تعليل تصرف السيوطي في عبارة الشهراباني :

قبل أن أنتقل إلى المطلب الرابع أحب أن أشير إلى أن قول السيوطي المتقدم عن الشهراباني « . . . كذا ذكره الحافظ الدمياطي . . . ولم يذكر مولده ولا وفاته » يدلنا أنه لم يعرف تاريخ مولده ولا وفاته ، وإلا لكان ذكرهما ، وكأنه لم ينشط لمراجعة هذا في مصدر آخر ، ويؤيد هذا أنه لم يذكره في وفيات الأعلام في أيام الخليفة العباسي في مصر الحاكم (بويغ سنة ٦٦١هـ ومات سنة ٧٠١هـ) في كتابه « تاريخ الخلفاء »^(١) وقد درج في هذا الكتاب على ذكر مَنْ مات من الأعلام في عهد كل خليفة ، وكأنه سها عن تاريخ وفاة الدمياطي ، وأنها في سنة (٧٠٥هـ)^(٢) التي يعرف منها زمن وجود شيخه الشهراباني ، ولو استحضر أن الشهراباني من أهل القرن السابع لعلم أن أبا بكر النيسابوري من أهل هذا القرن أيضاً ، فما كان ليحكم له بالسبق المطلق إلى علم المناسبة وهو يعلم - يقيناً - كلام الدهان والكرماني والزمخشري وابن العربي والرازي فيه - كما سيأتي - ، وربما لهذا السبب أهمل ذكره وذكر النيسابوري في كتابيه « قطف الأزهار في كشف الأسرار » و « تناسق الدرر في تناسب السور » ، وطوى ذكره في « الإتيقان » و « معترك الأقران » .

أو يقال : إن الإمام السيوطي كان يستحضر زمن وجود أبي الحسن الشهراباني من خلال معرفة زمن وجود تلميذه الحافظ الدمياطي ، ولكنه لما حذف اسمه في « الإتيقان » من النص الذي نقله عنه من « البرهان » غاب عنه معرفة زمن أبي بكر النيسابوري ، ثم بُني على ذلك أن حكم له بالسبق إلى هذا العلم في « معترك الأقران » .

* * *

(١) انظر ص ٤٣٢ .

(٢) شذرات الذهب ٢٣/٨ - ٢٤ .

المطلب الرابع

علم المناسبة في النصف الأول من القرن السابع

وصدى إظهاره^(١)

يبدو من التأمل في قول الشهرابي : « أول من أظهر ببغداد علم المناسبة » أن في تقديمه « بغداد » قصداً ، وهو الحديث عن مدينة بغداد بخصوصها ، ذلك أن هناك من كان يلهج به في بلاد أخرى ، ولعل علماء بغداد حين نبههم النيسابوري إلى هذا العلم وعاب عليهم عدم علمهم به ، بحثوا عنه وعمن تكلم فيه واهتم به وذهب إليه ، فتناهى إليهم من يتكلم به في وقتهم في تلك البلاد ، وقبل وقتهم أيضاً ، فكانت عبارة الشهرابي التي تحصر أولية إظهار هذا العلم في بغداد في جهود النيسابوري . ومن الضروري أن نشير إلى أنه قال : « أظهر » ولم يقل : « سبق » .

وقد كان في ذلك الوقت الإمام أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي المغربي نزيرل حماة (؟ - ٦٣٧هـ) ، وله « تفسير » ذكر فيه المناسبات .

قال البقاعي (ت ٨٨٥هـ) في مقدمة تفسيره « نظم الدرر »^(٢) عنه : « ثم بعد وصولي إلى سورة الأنفال ملكت جزءاً من « تفسيره » فيه من أوله إلى إن الله اصطفى في آل عمران ، فرأيت عديم النظر ، وقد ذكر فيه المناسبات ، وقد ذكرت ما أعجبنى منها ، وعزوته إليه ، يسر الله الاطلاع على بقيته بحوله وقوته » .

وقال المناوي (ت ١٠٣١هـ) في ترجمة الحرالي^(٣) : « وصنف تفسيراً ملأه بحقائقه ، ودقائق فكره ، ونتائج قريحته ، وأبدى فيه من مناسبات الآيات والسور ما يبهر العقول ،

(١) وهذا على المعنى الذي استقر عليه مصطلح « المناسبة » ، وما يعرف به الآن .

(٢) ١٠/١ .

(٣) الكواكب الدرية ٤٦٥/٢ .

وتحار فيه الفحول ، وهو رأس مال البقاعي ، ولولاه ما راح ولا جاء ، ولكنه لم يتم ، ومن حيث وقف وقف حال البقاعي في مناسباته .
وقد توفي الحرالي في حماة سنة (٦٣٧هـ)^(١) كما قدمت - أي بعد دخول النيسابوري بغداد بخمس سنوات - .

* * *

وكان أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي المرسى (٥٧٠ - ٦٥٥هـ)^(٢) ، وله ثلاثة تفاسير ، كبير ووسط وصغير ، والكبير في « عشرين مجلداً قصد فيه ارتباط الآيات بعضها ببعض ، وبين وجوهه »^(٣) واسم هذا التفسير « ري الظمان في تفسير القرآن »^(٤) .

وتأليفه لهذا وغيره متقدم ، وذلك أن ياقوتاً الحموي (ت ٦٢٦هـ) قال عنه : « رحل إلى خراسان . . . وقدم بغداد ، وأقام بحلب ودمشق ، ورأيت به بالموصل ، ثم حج ورجع إلى دمشق ، ثم عاد إلى المدينة فأقام على الإقراء ، ثم انتقل إلى مصر - وأنا بها - سنة أربع وعشرين وست مئة ، ولزم النسك والعبادة والانقطاع . . . » .
ويفهم من هذا النص عكوفه على العبادة منذ هذه السنة ، وكان قد بلغ من العمر (٥٤) سنة .

(١) انظر : الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام ١١٠/٩ ، والكتب التي ترجمت له كثيرة .

(٢) انظر ترجمته في النبلاء ٣١٢/٢٣ .

(٣) كشف الظنون ٤٥٨/١ .

(٤) وهو من مصادر أبي حيان في « البحر المحيط » أفاد منه في مواضع كثيرة . انظر « أبو حيان وتفسيره البحر المحيط » ص ٩٢ .

فعلم المناسبات كان موجوداً في ذلك الوقت (٦٣٢هـ)، وكان الحرالي والمرسي يتكلمان به ويؤلفان فيه .

ومن هنا ندرك أهمية النص على ذكر « بغداد » في كلام الشهراباني ، فهو يريد أن النيسابوري أظهر هذا العلم فيها ، ولا يتعرض إلى السبق المطلق ، ولا إلى غير بغداد من البلدان . ويبدو أن إقبال هؤلاء العلماء الثلاثة على هذا العلم أثار رأياً مغايراً، وهو ما نجده لدى الإمام العز بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ) وذلك إذ يقول^(١): « اعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ، ويتشبه ببعض لثلاث يكون مقطوعاً متبرأً ، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد ، فيرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك يُصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه ، فإن القرآن نزل على الرسول عليه السلام في نيف وعشرين سنة ، في أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض ، إذ ليس يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه ببعض مع اختلاف العلل والأسباب . . . » .

ولم يقف أحد من الباحثين - فيما علمت - عند هذا القول ليسأل عن باعته والمقصود به ، ويبدو لي أنه يقصد واحداً من هؤلاء الثلاثة ، أو يقصدهم كلهم، وقد ذكر عن العز موقف مع الحرالي :

قال المقرئ في ترجمته^(٢): « ووقع بينه وبين الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيء ، طلب عز الدين أن يقف على « تفسيره » ، فلما وقف عليه قال : أين قول مجاهد ؟ أين

(١) ذكر هذا القول الزركشي ، وتبعه السيوطي ، وأفاد الجزائري أنه في « مجاز القرآن » فانظر « الإشارة إلى الإنجاز في بعض أنواع الجواز » ص ٢٢١ - في أواخر الكتاب .

(٢) نفح الطيب ٣٩٩/٢ .

قول فلان وفلان ؟ وكثر القول في هذا المعنى ، ثم قال : يخرج من بلادنا إلى وطنه - يعني الشام - . فلما بلغ كلامه الشيخ قال : هو يخرج وأقيم أنا . فكان كذلك » .
والجدير بالذكر أن أحداً لم يستجب لاعتراضات العز بن عبد السلام ، وقد لقي رأيه معارضة صريحة أو ضمنية ، من خلال الرد عليه أو الاستمرار في الاعتناء بهذا العلم والتأليف فيه :

- ففي أخريات هذا القرن توفي المفسر ابن النقيب المقدسي الحنفي (٦١١ - ٦٩٨ هـ) وكان كذلك مهتماً بعلم المناسبة ، يقول البقاعي في مقدمة « تفسيره » ^(١) :
« وبعد أن وصلت إلى سورة الكهف ذكر لي أن تفسير ابن النقيب الحنفي - وهو في نحو ستين مجلداً - يذكر فيه المناسبات ، وفي خزانة جامع الحاكم كثير منه ، فطلبت منه جزءاً فرأيت أنه كذلك بالنسبة إلى الآيات لا جملها ، وإلى القصص لا جميع آياتها . . . » .
وقد عاش ابن النقيب في القدس والقاهرة ^(٢) .

- وفي أوائل القرن الثامن توفي الإمام أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (٦٢٧ - ٧٠٨ هـ) صاحب « البرهان في ترتيب سور القرآن » - أي في بيان مناسبات ترتيب السور - .

وقد ذكر في مقدمته أنه لم ير في هذا الضرب - مناسبات السور - شيئاً لمن تقدم وغير ، قال ^(٣) : « وإنما ندر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع متفرقات » ولم يصرح بهذا البعض .

(١) نظم الدرر ١/١٠ .

(٢) انظر ترجمته في طبقات المفسرين ١٥٠/٢ واسمه (محمد بن سفيان) وانظر عن مخطوطات تفسيره :

الفهرس الشامل ١/٣٤٦ .

(٣) البرهان ص ١٨١ ط شعباني .

- وفي سنة ٧١٩ هـ توفي المفسر القاضي البيضاوي^(١)، وهو ممن عرض لهذا العلم^(٢).
- وفي سنة ٧٤٣ هـ توفي الإمام الحسن الطيبي، قال ابن عجيبة^(٣): «ومن أجل تفاسير المشاركة: تفسير الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي - بكسر الطاء - أكثر فيه من الدقائق والنكت البليغة، وتناسب الآيات والصور المكية والمدنية». ولعله يقصد حاشيته «فتوح الغيب».
- وفي سنة ٧٤٥ هـ توفي المفسر أبو حيان الأندلسي، وقد التزم في تفسيره «البحر المحيط» أن يذكر مناسبة الآية وارتباطها بما قبلها^(٤).
- وممن ردّ كلام العز بن عبد السلام الإمام محمد بن أحمد العثماني الديباجي الشافعي، المعروف بابن المنفلوطي وبالمملوي (٧١٣ - ٧٧٤ هـ)^(٥).
- قال الزركشي^(٦): «قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة...».
- وقد بين البقاعي أن المشار إليه هو الإمام المذكور، وأنه ذكر هذا في «كلام مفرد على قوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ [القصص: ٥]^(٧).

(١) هذا ما اعتمده الخفاجي في حاشيته على التفسير خلافاً للمشهور وهو سنة ٦٨٥ هـ. انظر: كفاية الراضي ٤/١.

(٢) انظر: في علوم القرآن للأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات ص ٧٥.

(٣) تفسير الفاتحة الكبير ص ١٢١.

(٤) انظر: البحر المحيط ٤/١.

(٥) ترجمته في طبقات الداوودي ٦٣/٢، وانظر الفهرس الشامل ٤٢٢/٢.

(٦) البرهان ١٣٣/١.

(٧) نظم الدرر ٨/١ - ٩، وصرح باسمه السيوطي في الإتيان ٣٢٣/٣، ومعتزك الأقران ٤٤/١.

- وأيد الإمام المملوي تلميذه الزركشي (٧٤٥ - ٧٩٤هـ) إذ قال : « اعلم أن المناسبة علم شريف ، تحزر به العقول ، ويعرف به قدر القائل فيما يقول » . ثم راح يفصل القول في ذلك^(١).

أكتفي بذكر هؤلاء - وهناك غيرهم - وأتوقف عند نهاية القرن الثامن فليس من غرضي هنا استيعاب ذلك أيضاً .

* * *

(١) البرهان ١/١٣١ - ١٤٨ .

المطلب الخامس

تساؤلات يثيرها قول الشهرابي

تفيد عبارات الشهرابي : « ولم نكن سمعناه من غيره . . . » « وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة » أن علماء بغداد لم يكونوا عالمين به ، ويثير هذا أكثر من تساؤل :

ومن ذلك أن يقال : ألم يطلع علماء بغداد في ذلك الوقت (الثلث الأول من القرن السابع) على ما تقدم في هذا العلم ، ولا سيما أن الحوم حوله في القرن الخامس ، والكلام فيه في القرن السادس كان موجوداً ، ولنتأمل قول الإمام أبي محمد الجويني (ت ٤٣٨هـ) - والد إمام الحرمين - في « تفسيره » في كلامه على قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة : ١١٥] : « سمعت أبا الحسن الدهان يقول : وجه اتصالها [أي بما قبلها] هو أن ذكر تخريب بيت المقدس قد سبق ، أي فلا يجرمكم ذلك واستقبلوها ، فإن لله المشرق والمغرب »^(١). ولنتأمل كذلك قول السيوطي في مقدمة رسالته « مراصد المطالع »^(٢):

« إن من علوم القرآن العظيم : مناسبة مطالع السور ومقاطعها كما أوضحته في « الإتيان » وكتاب « أسرار التنزيل » ، وقد صرح بذلك الأئمة المحققون :

كصاحب الكشاف [٤٦٧ - ٥٣٨هـ] ، وشيخه محمود بن حمزة الكرماني [٩ - ت بعد ٥٠٠هـ] صاحب « البرهان في متشابه القرآن » و « الغرائب والعجائب في التفسير » ، والإمام فخر الدين [٥٤٤ - ٦٠٦هـ] ، والأصبهاني [٦٩٤ - ٧٤٩هـ] ، وغيرهم » .

(١) نقله الزركشي في البرهان ١/١٤١ ، والسيوطي في الإتيان ٣/٣٣٠ .

(٢) المنشورة في مجلة الأحمديّة العدد (٤) ص ٨٩ - ٩٠ .

إذن فالجويني تطرق إليه ، وكذلك الكرمانى^(١) ، والزمخشري ، والرازي - وأكثر منه - ، ويؤكد هذا قول الزركشي : « وتفسير الإمام فخر الدين فيه شيء كثير من ذلك »^(٢) ، وقول السيد عبد الله بن الصديق الغماري : « والزمخشري يتعرض في تفسيره لبيان مناسبة بعض الآي ، لكن الإمام الرازي أكثر تعرضاً منه لبيان تلك المناسبة »^(٣) وقول الدكتور محمد القاسم عن تفسير الرازي^(٤) : « إن الكتاب حافل بالمناسبات الكثيرة ، سواء بين الآية والآية ، أو النجم والنجم ، أو أجزاء السور عامة ، أو بين السورة وسابقتها ولاحقتها » . وقد ورد في كلامه استعمال لفظ « المناسبة »^(٥) .

ولا ننسى أن الرازي هو القائل في أواخر تفسير سورة البقرة [الآية : ٢٨٥] ^(٦) : « ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غير متنبهين لهذه الأمور »^(٧) ، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر »

(١) وهذا على حسب إشارة السيوطي ، ولا بد من بحث عن جهود الكرمانى واستقراءها في كتابيه « البرهان » و « الغرائب والعجائب » لنرى ماله في ذلك .

(٢) البرهان ١/١٣٠ .

(٣) جواهر البيان ص ١٩ .

(٤) الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ص ٤١ .

(٥) انظر تفسيره ، آخر تفسير سورة المائدة .

(٦) تفسير الرازي ٤/١٤٠ وانظر : الرازي مفسراً ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٧) قول الرازي هذا : « رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف » مما ينقض مقولة التاريخ لظهور هذا العلم في ذلك الوقت المتقدم : أوائل القرن الرابع الهجري .

هذا في المشرق ، وأما في المغرب فقد كان الإمام أبو بكر ابن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) - عصري الزمخشري - يقول^(١) :

« ارتباط أي القرآن بعضه ببعض ، حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني ، منتظمة المباني ، علم عظيم ، لم يتعرض له إلا « عالم واحد »^(٢) عمل فيه سورة البقرة . ثم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددناه إليه » .

وهذا الكتاب الذي يشير إليه هنا ذكره في كتابه « الناسخ والمنسوخ »^(٣) في كلامه على سورة الأنعام فقال : « والأحكام فيها قليلٌ لعارضٍ بيّننا وجهه في « ترتيب أي القرآن » ، وهو كتاب أخفينا بعد أن جمعناه ، لما رأينا فيه من علوه على أقدار أهل الزمان ، وأنه ليس له في هذه الأقطار حفي ، فوضعناه في سرب خفي » .

وأعود فأتساءل : ألم تبلغ هذه المعلومات علماء بغداد فتثير لديهم الرغبة في هذا العلم والبحث فيه ؟ ألم يصل إليهم تفسير الزمخشري والرازي - إن لم تكن قد وصلت إليهم كتب الجويني والكرماني وابن العربي - ولدينا نص يفيد أن الزمخشري أرسل كتبه إلى بغداد ووقفها في مشهد أبي حنيفة^(٤) ، ولا بد أن « التفسير » من ضمنها .

(١) في كتابه « سراج المريدين » . نقله الزركشي في البرهان ١/١٣٢ ، وتابعه السيوطي في الإتقان . ومنه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية كما قال الأستاذ سعيد أعراب في كتابه « مع القاضي أبي بكر بن العربي » ص ١٣١ ، وليت له من يخدمه وينشره .

(٢) ما زال هذا العالم مجهولاً ، ويجب البحث عنه .

(٣) ٢١٠/٢ .

(٤) جاء في جوابه للحافظ أبي طاهر السلفي الذي أرسل إليه مستجيراً : « ونقلت كتبي كلها إلى مشهد أبي حنيفة - رحمه الله - فوقفتها ، وأصفرت يدي منها ، إلا دفترًا واحدًا قد تركته تيممة في عضدي ، وهو كتاب الله المبين » . أزهار الرياض ٣/٢٨٤ - ٢٨٥ .

وحين ترجم له ابن الجوزي البغدادي (٥١٠ - ٥٩٧هـ) قال : « وصنف التفسير الكبير »^(١).

أما تفسير الرازي فهو مندرج في قول ابن الساعي البغدادي (٥٩٣ - ٦٧٤هـ) عن الرازي : « سارت تصانيفه في الأقطار، واشتغل بها علماء الأمصار »^(٢) لكننا لا ندري متى وصل إلى بغداد^(٣)، إلا أننا نعلم أن الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الشارمساحي مدرس المالكية في « المستنصرية » (٥٨٩ - ٦٦٩هـ)^(٤) « صنف كتاب « المآخذ » في مجلدين، بين فيهما ما في « تفسير » الفخر من الزيف والبهرج، وكان ينقم عليه كثيراً، ويقول : يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق ، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء »^(٥) فهو - إذن - مطلع على هذا التفسير مشغول به ، ولكن قد دخل الشارمساحي بغداد سنة (٦٣٣هـ) فهو حين دخول النيسابوري - على ما ارتأيته - لم يكن موجوداً ، وحتى لو كان فإن رأيه بالتفسير - كما ترى - غير حميد ، كما أننا لا ندري متى بدأ اهتمامه به .

ومن اشتغل بتفسير الرازي « العلامة برهان الدين النسفي المتكلم ، شيخ الفلسفة ببغداد ... »^(٦) فإن له « مختصر تفسير الرازي » ولكنه إنما قصد بغداد وأقام بها سنة (٦٧٥هـ)^(٧).

(١) المنتظم ٣٨/١٨ .

(٢) الجامع المختصر ٣٠٧/٩ .

(٣) أما الرازي فلم يدخل بغداد ، قال ابن الساعي في الجامع المختصر ٣٠٧/٩ : « وكان يؤثر الوصول إلى بغداد فحال بينه وبين ذلك العوائق والأقذار » .

(٤) ترجمته في معجم المؤلفين ٧١/٦ .

(٥) ذكر هذا نجم الدين الطوفي (٦٥٧ - ٧١٦) في « الإكسير لعلم التفسير » نقلاً عن شرف الدين النصيبي عن شيخه الشارمساحي . انظر : الإكسير ص ٢٦ ، ولسان الميزان ٤٢٧/٤ - ٤٢٨ .

(٦) انظر التقديم لتفسير سورة الناس له ص ١٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٢٤ .

ومن قبلهما عاد إلى بغداد - قاصداً الحج - وتوفي بها العلامة الموفق عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧ - ٦٢٩هـ) وله من الكتب : « الرد على فخر الدين الرازي في تفسير سورة الإخلاص »^(١) ولكن « تفسير سورة الإخلاص » هذا كتاب غير « التفسير الكبير »^(٢).

وقد يجاب عن هذا التساؤل : بأن علماء بغداد يعلمون بهذه المصنفات ، ولكن لم يكن فيهم من توجه لهذا العلم واعتنى به وبرز فيه ، ولم يقدر أن جاء إلى بغداد في ذلك الوقت عالم مشغول بهذا العلم غير أبي بكر النيسابوري ، فلم يسمعوا أحداً يلهج به ويسألهم عنه غيره . ولعلمهم لم يكونوا عالمين به بالتفصيل والتوسع علمه هو .

وأبو الحسن الشهرستاني ينفي سماعه من غيره ، وينفي علم علماء بغداد به ، ولا ينفي علمهم بوجوده والتطرق إليه في مؤلفات سابقة ، وعلمه بوجوده من حيث الجملة .

* * *

والتساؤل الثاني يتعلق بقول الشهرستاني : « وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة » فَمَنْ كان في بغداد من العلماء المعروفين الذين لهم اشتغال بالدراسات القرآنية في النصف الأول من القرن السابع ؟

إن النظر - على قدر ما يتسع له الوقت الآن - يقودنا إلى ذكر هؤلاء :

١ - الإمام محمود بن أحمد الزنجاني (٥٧٣ - ٦٥٦هـ شهيداً) له « تفسير القرآن »^(٣).

٢ - الإمام محيي الدين يوسف ابن الجوزي (٥٨٠ - ٦٥٦هـ شهيداً) له « معادن الإبريز في تفسير الكتاب العزيز »^(٤).

(١) معجم المفسرين ٣٠٢/١ .

(٢) كشف الظنون ٤٤٩/١ .

(٣) طبقات الداوودي ٣١٠/٢ .

(٤) السابق ٣٨٢/٢ .

٣ - الإمام المؤرخ علي بن أنجب المعروف بابن الساعي (٥٩٣ - ٦٧٤هـ) له « مختصر تفسير البغوي »^(١).

٤ - الإمام عبد الجبار بن عبد الخالق البغدادي (٦١٩ - ٦٨١هـ) له « مشكاة البيان في تفسير القرآن »^(٢).

ومنهم :

٥ - الإمام عبد الله بن الحسين العكبري البغدادي، وله « تفسير القرآن » و « البيان في إعراب القرآن » و « متشابه القرآن »، ولكنه توفي سنة (٦١٦هـ)^(٣).

٦ - الإمام عمر بن محمد السهروردي له « بغية البيان في تفسير القرآن » ولكنه توفي في المحرم سنة (٦٣٢هـ)^(٤).

٧ - الإمام يوسف بن قزغلي المعروف بسبط ابن الجوزي (٥٨١ - ٦٥٤هـ) له « تفسير » في سبعة وعشرين مجلداً^(٥)، لكنه استوطن دمشق سنة بضع وست مئة^(٦).

وأما المشتغلون بالإقراء والقراءات، ممن كان في سنة ٦٣٢هـ موجوداً فهم :

١ - أبو البركات عبد العزيز بن محمد ابن القبيطي (٥٦٣ - ٦٣٤هـ)^(٧).

(١) السابق ١/ ٤٠٠.

(٢) السابق ١/ ٢٦٤.

(٣) السابق ١/ ٢٣٢، والإعراب مطبوع، أما التفسير فذكر له نسخة مخطوطة. انظر الفهرس

الشامل ١/ ٣٤١.

(٤) السابق ٢/ ١٢، وانظر عن تفسيره الفهرس الشامل ١/ ٢٤٤.

(٥) السابق ٢/ ٣٨٢، وفي منتخب المختار ص ٢٣٧ - ٢٣٨ : في تسعة وعشرين.

(٦) الفوائد البهية ص ٢٣٠.

(٧) طبقات القراء ٣/ ١١١٢ ط أحمد خان.

- ٢ - أبو القاسم هبة الله بن الحسن البغدادي المعروف بالأشقر (ت ٦٣٤هـ) وقد قارب الثمانين^(١).
- ٣ - عبد العزيز بن دلف البغدادي الناسخ الخازن (٥٥١ - ٦٣٧هـ)^(٢).
- ٤ - أبو الحسن علي بن أنجب البغدادي المأموني الحنبلي (٥٦٦ - ٦٤٢هـ)^(٣).
- ٥ - إبراهيم بن محمود بن سالم البغدادي الأزجي (٥٦٣ - ٦٤٨هـ)^(٤).
- ٦ - أبو منصور محمد بن علي بن عبد الصمد البغدادي المقرئ الخياط (٥٨١ - بعد ٦٥٠هـ)^(٥).
- ٧ - ابن الداعي محمد بن عمر العباسي الرشيدي الواسطي (٥٧٧ - ٦٦٨هـ)^(٦).
- ٨ - علي بن عثمان الوجوهي البغدادي (٥٨٢ - ٦٧٢هـ) صاحب « بلغة المستفيد في القراءات العشر »^(٧).
- ٩ - عبد الصمد بن أحمد ابن أبي الجيش البغدادي شيخ بغداد (٥٩٣ - ٦٧٦هـ)^(٨).
- ١٠ - يوسف بن جامع القفصي البغدادي الضرير (٦٠٦ - ٦٨٢هـ)^(٩).

- (١) الذيل لابن رجب ٢/٢١١ ، وطبقات القراء للذهبي ٣/١٠٩٥ .
- (٢) معرفة القراء الكبار ٢/٦٢٦ ، الذيل ٢/٢١٧ .
- (٣) طبقات القراء ٣/١٠٩٨ .
- (٤) الذيل ٢/٢٤٣ - ٢٤٤ .
- (٥) طبقات القراء ٣/١١٣١ .
- (٦) طبقات القراء ٣/١١٣٥ وفيه : « تصدر للإقراء ببغداد قبل كائنة التتار ، وأقرأ الناس ، ثم سلم ، وعاد إلى واسط وأقرأ بها » .
- (٧) طبقات القراء ٣/١١٦٧ ، الذيل ٢/٢٨٤ - ٢٨٥ .
- (٨) معرفة القراء الكبار ٢/٦٦٥ ، طبقات القراء ٣/١١٥١ ، الذيل ٢/٢٩٠ - ٢٩٤ .
- (٩) معرفة القراء الكبار ٢/٦٨٣ ، طبقات القراء ٣/١١٨٤ ، الذيل ٢/٣٠٣ - ٣٠٤ .

١١ - عبد الرحمن بن عبد اللطيف الملقب بالفويره (٥٩٩ - ٦٩٧هـ)^(١).

وهكذا نجد أن المشتغلين بالتفسير (ولا سيما في سنة ٦٣٢هـ) قلة، ولعل هذا يفسر لنا التماس أهل بغداد من الإمام محمد الدين عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية (٥٩٠ - ٦٥٢هـ) الإقامة عندهم .

قال الذهبي^(٢): « وبلغنا أن الشيخ المجد لما حج من بغداد في آخر عمره [٦٥١هـ] واجتمع به صاحب العلامة محيي الدين ابن الجوزي ، فانبهر له ، وقال : هذا الرجل ما عندنا ببغداد مثله . فلما رجع من الحج التمسوا منه أن يقيم ببغداد ، فامتنع واعتل بالأهل والوطن » .

وقد وُصف محمد الدين بالعلم الغزير ، ومن ذلك أن له « اليد الطولى في معرفة القراءات والتفسير »^(٣).

وكأنَّ الاهتمام بعلم المناسبة ظل بعيداً عن اهتمام البغداديين ، إذ لا نجد - حسب المعلومات والمصادر المتاحة الآن - إشارة إلى تأليف في ذلك ، إلى أن جاء العلامة أبو الثناء الألوسي (١٢١٧ - ١٢٧٠هـ) ، فقد عرض لهذا العلم في تفسيره « روح المعاني »^(٤).

وكذلك حفيده من بعده السيد محمود شكري الألوسي (١٢٧٣ - ١٣٤٢هـ) وقد

(١) طبقات القراء ١١٨٧/٣ .

(٢) معرفة القراء الكبار ٦٥٤/٢ ، وطبقات القراء ١١٢٨/٣ وفيه : « سمعت . يرخنا أبا العباس يقول : بلغنا . . . » ونقله ابن رجب في الذيل ٢٥١/٢ .

(٣) المصدران السابقان ، وفي الذيل : « معرفة القرآن والتفسير » .

(٤) جاء في « التفسير والمفسرون » ٣٦١/١ عنه : « أنه يعنى بإظهار وجه المناسبات بين السور ، كما يعنى بذكر المناسبات بين الآيات » .

بدأ بتأليف كتاب سماه « منتهى العرفان والفضل المحض في ربط بعض الآيات ببعض » ولكنه لم يكتب منه إلا اليسير^(١).

* * *

والتساؤل الثالث هو من جهة أخرى ويتعلق بقول الشهرابي : « وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه ». فما معنى هذا، وهل كان يقول هذا في درس خاص أو مجلس عام ؟ أم في الاثنين معاً ؟ وهل تولى شيئاً من التدريس وأقام في بغداد أو كان زائراً أو حاجاً ؟ كل هذه الأسئلة تعرض للناظر في عبارة الشهرابي ، ولا يمكن القطع بشيء من الإجابات عنها، ولكن لعل العبارة يستشف منها أنه كان يعقد مجالس يتكلم فيها، وكان من عادة الوافدين على بغداد أن يتكلموا ويعظوا^(٢).

وكانت العادة في بغداد أن يقرأ القراء قبل بدء الشيخ بإلقاء وعظه، وقد ذكر هذا الرحالة ابن جبير (٥٣٩ - ٦١٤هـ) فيما رآه في بغداد التي دخلها سنة (٥٨٠هـ) فقال^(٣):

« فأول من شاهدنا مجلسه منهم [أي من علماء بغداد] الشيخ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية ، وفقه المدرسة النظامية ، والمشار إليه بالتقديم في العلوم

(١) قال عنه تلميذه الأستاذ محمد بهجة الأثري (ت ١٤١٦هـ) في كتابه « محمود شكري الألوسي : سيرته ودراساته اللغوية » ص ١١٠ : « هو من منهج كتاب البقاعي الذي طبع حديثاً ، ولست أدري هل وقف عليه أو لا ؟ شرع في تأليفه في أوائل سنة ١٣٤١هـ ثم حالت منيته دون أمنيته في إتمامه » اهـ قلت : وقد رأيت مسودة المؤلف وهذا وصفها : كتب الألوسي بخطه سورة المائدة والأنعام والأعراف وشيئاً من النساء في أوراق . وعلق على المائدة في « ١١ » صفحة منها ، والتعليقات قليلة - في حواشي الصفحات - . وعلق على سورة الأنعام في صفحة واحدة ، وعلى سورة الأعراف في صفحتين - ويظهر أن بعض الصفحات سقط - وعلق على سورة النساء في « ٩ » صفحات . وجاء في آخرها : آخر النساء .

(٢) انظر على سبيل المثال : المنتظم ١٨/١٠ (حوادث سنة ٥٣٨هـ) .

(٣) رحلة ابن جبير ص ١٩٥ .

الأصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس
لصفر المذكور ، فصعد المنبر^(١) ، وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة ،
فتوقوا وشوقوا ، وأتوا بتلاحين معجبة ، ونغمات مخرجة مطربة^(٢) ، ثم اندفع الشيخ
الإمام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرف في أفانين عن العلوم ، من تفسير
كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتكلم على
معانيه . . . »^(٣) .

والظاهر أن أبا بكر النيسابوري مشى على هذه الخطة ، وكان أكثر ما يتناول في
كلامه علم المناسبة في الآيات والصور التي تقرأ عليه بحيث لفت الأنظار واستوجب
التنبية ، ولم يكن لعلماء بغداد عادة بذلك .

* * *

(١) وقد يجلس الواعظ على كرسي . انظر كتاب القصاص والمذكرين ص ١٤٣ - ١٤٧ .

(٢) يريد : مشجية مخزنة .

(٣) وذكر مثل هذا عن الإمام ابن الجوزي ، فانظره .

الخاتمة

رأي أولي في أولية علم المناسبة

تبين لنا مما سبق أن التعريف بأبي بكر النيسابوري على أنه الحافظ عبدالله بن محمد بن زياد المتوفى سنة ٣٢٤هـ وجه البحث في تاريخ علم المناسبة توجيهاً غير صحيح ، والآن فلا بد من إعادة النظر في ذلك .

وكان أحد الأساتذة الأجلاء - مع أنه أرخ لأبي بكر النيسابوري بأنه المتوفى سنة ٣٢٤هـ - يرجع أسبقية إظهار هذا الفن إلى شيخ المفسرين الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسيره « جامع البيان » إذ ذكر فيه نبذاً ولطائف من المناسبات^(١) . ويرد على هذا الرأي امران :

الأول : أن الطبري والنيسابوري متعاصران ، وإن كان الطبري ولد قبل النيسابوري بـ (١٤) سنة ، ومات قبله بـ (١٤) سنة كذلك ، فهما مشتركان بـ (٧٢) سنة ، والحكم بأسبقية عصري على الآخر لا بد له من دليل قوي .

الثاني : أن النيسابوري إن كان هو المتوفى سنة ٣٢٤هـ فهذا يلزم منه أن يكون الطبري من المشمولين بجملة : « وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة » فكيف يكون الطبري سابقاً إلى هذا العلم ، ويزري عليه النيسابوري بعدم علمه بالمناسبة ؟ ثم أرى أنه لا بد من التفريق بين وجود نبذ ولطائف من هذا العلم في كتب التفسير ، ووجوده كعلم .

(١) انظر : « علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن » ص ٨٦ - ٨٧ .

فالتطيري وغيره من المفسرين يذكرون نبذاً من ذلك من باب السياق والسباق^(١) ،
ولكن أبا بكر النيسابوري يذكره على أنه : « علم المناسبة » .
على أن أبا بكر مسبوق بتسميته علماً ، فأبو بكر ابن العربي سَمَّاهُ « علماً » كذلك ،
كما مرّ في النص الذي نقله الزركشي من كتابه « سراج المريدين » .
ولابد من القول أننا لا ندرى هل وضع أبو بكر النيسابوري شيئاً في هذا العلم ، أم
اكتفى بالكلام عليه ؟

وحتى لو افترضنا أنه أفردته بالتأليف فهو مسبوق بـ « العالم الواحد » الذي عمل فيه
سورة البقرة ، وبأبي بكر ابن العربي الذي كتب « ترتيب آي القرآن »^(٢) .

والخلاصة أن أولية هذا العلم غير واضحة تمام الوضوح إلى الآن ، ولا سيما مع
بقاء كثير من مصادر التفسير وعلوم القرآن مخطوطة بعيدة عن أيدي الباحثين ، وقد
سبق معنا ذكر الجويني ما سمعه من أبي الحسن الدهان ، مما يدخل في هذا الباب ،
وهو نص مهم ، وقد نقله الزركشي ثم السيوطي ، ولم يتوقف السيوطي عنده
ولا من بعده من الدارسين - على أهميته - ، ولكن من يكون أبو الحسن الدهان هذا
الذي يبدو من قوله هذا أنه يعالج فكرة « المناسبة » ؟ ولنلاحظ أن قوله المنقول هو عن
آية من سورة البقرة ، فهل له علاقة بما قاله ابن العربي عن ذلك « العالم الواحد »
الذي عمل في هذا العلم « سورة البقرة » ؟ وماذا في تفسير الجويني غير هذا النص ؟
وهل وقف - يا ترى - أبو بكر النيسابوري على تفسير الجويني النيسابوري وأفاد منه ؟

(١) لندكتور محمد إقبال عروي بحث بعنوان « الوظيفة الترجيحية للسياق عند المفسرين » منشور في مجلة
آذاق الثقافة والتراث ، العدد (٣٥) فانظره إن شئت .
(٢) وأما ما جاء في التقديم لرسالة السيوطي « مراصد المطالع » ص ٨٠ : « لم تذكر لنا المصادر شيئاً
عمن أفرد علم المناسبات بالتأليف حتى عصر الإمام أبي جعفر بن الزبير (ت ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) » فهو
موضع نظر .

ولماذا لم يطبع هذا « التفسير » إلى الآن ؟ هذه أسئلة تحتاج إلى أجوبة ووقفات ، وحسبي الآن إثارتها .

وبما أن « العالم الواحد » الذي ذكره ابن العربي مُبْهِماً ما زال مجهولاً ، فإن من الصعب الحكم بأولية هذا العلم ، لكن أقدم إشارة نقف عليها - إلى هذا الوقت - هي إشارة الجويني إلى أبي الحسن الدهان .

أما إفراده بالتأليف فلعل الأولوية لـ « العالم الواحد » الذي ذكره ابن العربي ، ثم لابن العربي نفسه ، والله أعلم .

* * *

نتائج البحث

أخلص فيما يأتي أبرز نتائج هذا البحث فأقول :

- ١ - إن أبا بكر النيسابوري الذي نسب إليه السبق إلى علم المناسبة القرآنية - ابتداء من عصر السيوطي إلى هذا الوقت - ليس هو السابق إليه .
- ٢ - إن الترجمة التي وضعها له الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم وتابعه كل الذين كتبوا في هذا العلم ، وهي أنه الإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن زياد الشافعي شيخ الشافعية بالعراق المتوفى سنة ٣٢٤ هـ : ليست ترجمة له .
- وكذلك الترجمة التي وضعها الأستاذ محمد شعباني وهي أنه الإمام المقرئ محمد بن عبدوس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ .
- وإن أبا بكر النيسابوري المقصود بكلام أبي الحسن الشهرستاني - الذي نقله الزركشي - عالم من علماء القرن السابع الهجري جزماً ، ولم تظهر له ترجمة حتى الآن .
- ٣ - إن دور أبي بكر النيسابوري ينحصر في إظهار علم المناسبة في مدينة بغداد .
- ٤ - إن التاريخ لظهور علم المناسبة - باعتباره علماً - في مطلع القرن الرابع الهجري تبعاً لما سبق غير صحيح .
- ٥ - إن من أسباب هذه الأخطاء : تصرف السيوطي في كلام أبي الحسن الشهرستاني - وكم جرّ التصرف من أخطاء - .
- ومنها : تسرع المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم في إلصاق ترجمة بأبي بكر النيسابوري على سبيل الجزم من غير دليل ، وهذا خطير ولا سيما حين تشابه الأسماء والألقاب والأنساب .

ومنها : متابعة الأساتذة الدارسين لمن قبلهم - في هذه المسألة - من غير بحث عن مستندهم .

٦ - إن هذه الأسباب أدت إلى تصورات وأحكام مغلوطة، وبني عليها نسبة شيء لغير أهله، وغمط آخرين حقهم وجهدهم.

٧ - إن أبا الحسن الشهرابي ليس بجهولاً ، وإنه علم كبير من أعلام الإسلام في القرن السابع الهجري ، وليس من أهل القرن الرابع وليس تلميذاً للمحافظ ابن زياد ! وإن الحكم على الرجال بالجهالة بجرة قلم أمر مؤسف جداً .

٨ - إن مصطلح « علم المناسبة » في كلام أبي الحسن الشهرابي قد يكون المقصود به ما يشمل علم « متشابه القرآن » وعلم « الروابط والترتيبات » .

وأوصي :

أ - بإعادة بحث تاريخ علم المناسبة في ضوء هذه النتائج لنعرف من هو مؤسس هذا العلم حقاً، ومتى بدأ بصورة مطلقة لا مقيدة وأين؟ وقد تطرق البحث إلى جوانب من هذا ، وما زال في الموضوع حاجة إلى التوسع والتحقيق .

ب - كما أوصي بهذه المناسبة بإيلاء العناية الكافية لتاريخ علم التفسير ، وبحثه بدقة وشمول واستقصاء .

ج - ويلزم من هذا وصية أخرى ، وهي التوجه الجاد الرصين الصادق لطبع التراث التفسيري ، ونفض الغبار عنه ، ووضع تحت أيدي الباحثين ، فما زالت هناك كتب مهمة جداً حبيسة الخزائن ! وهذا غريب جداً من أمة القرآن !! .

* * *

مصادر البحث

كتب التفسير :

- الأساس في التفسير لسعيد حوى ، دار السلام ، القاهرة ، ط ٤ (١٤١٤ = ١٩٩٣).
- البحر المحیط لأبي حيان ، مصورة مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت .
- تفسير الرازي ، دار الفكر ، بيروت (١٤١٤ = ١٩٩٣).
- تفسير سورة الناس للبرهان النسفي ، تح : د. عيادة بن أيوب الكبيسي ، من إصدارات دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بلدي ، ط ١ (١٤٢٢ = ٢٠٠١).
- تفسير الفاتحة الكبير من « البحر المديد » لابن عجيبة ، تح : بسام محمد بارود ، دار الحاوي ، ط ١ (١٤٢٠ = ١٩٩٩).
- حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي « عناية القاضي وكفاية الرازي » ، مصورة دار صادر .
- نظم الدرر للبقاعي ، ط دائرة المعارف العثمانية في الهند .

علوم القرآن :

- أبو حيان وتفسيره البحر المحیط للدكتور بدر بن ناصر البدر ، مكتبة الرشد ، الرياض (١٤٢٠ = ٢٠٠٠).
- الإتيقان للسيوطي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المشهد الحسيني ، ط ١ (١٣٨٧).
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المحاز لعز الدين بن عبد السلام ، مصورة دار البشائر الإسلامية ، ط ١ (١٤٠٨ = ١٩٨٧).
- الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره للدكتور محمد أحمد القاسم ، دار المطبوعات الدولية ، القاهرة ، ط ١ (١٣٩٩ = ١٩٧٩).

- الإكسير في علم التفسير للطوفي ، تح : د. عبدالقادر حسين ، المطبعة النموذجية ، القاهرة (١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م).
- الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن للدكتور محمد يوسف الشرجي ، دار المكتبي ، دمشق ، ط ١ (١٤٢١ = ٢٠٠١).
- البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي :
- ١ - تح : د. سعيد الفلاح ، منشورات جامعة الإمام بالرياض (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م).
- ٢ - تح : محمد شعباني ، منشورات وزارة الأوقاف المغربية (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م).
- البرهان في علوم القرآن للزركشي :
- ١ - تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصورة دار المعرفة ، بيروت .
- ٢ - تح : د. يوسف المرعشلي وآخرين ، دار المعرفة ، ط ٢ (١٤١٥ = ١٩٩٤).
- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني ، تح : أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ، دار صادر ، بيروت ، ط ٢ (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م).
- تاريخ التفسير لقاسم القيسي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد (١٣٨٥ = ١٩٦٦).
- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتيان لطاهر الجزائري ، اعتنى به عبدالفتاح أبو غدة ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط ٣ (١٤١٢).
- التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ، مؤسسة التاريخ العربي ودار إحياء التراث العربي بيروت ، ط ٢ (د.ت).
- التناسب البياني في القرآن : دراسة في النظم المعنوي والصوتي للدكتور أحمد أبو زيد ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب (١٩٩٢).
- تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ، تح : عبد الله محمد الدرويش ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ (١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م).

يعتبره جريمة ، يعاقب عليها كما في القانون التونسي^(١) ، وكذلك في القانون العراقي ، فلا يجوز الزواج من امرأة ثانية إلا بإذن القاضي ، ومن تزوج بأكثر من واحدة بدون علم القاضي يعاقب بالحبس مدة ، لا تزيد على سنة ، أو بالغرامة بما لا يزيد على مائة دينار ، هذا ما قرره مجلس قيادة الثورة العراقي في جلسته المنعقدة في (١٩٨٢/١/٢٧ م)^(٢) .

ونتيجة هذا المبحث : هو أن نبين فيه ، بأن التعريف الذي جاء في الشريعة الإسلامية للجريمة ، تعريف جامع مانع ، في حين أنه في القانون الوضعي ، تعريف جامد ، لأنه يخص الجريمة بما كان عليه مُساءلة قانونية أو عقاب قانوني ، وهذا فيه من التصور ما لا يخفى على أحد ، فإنه بتعريفه للجريمة ، يفتح الباب لكثير من الناس أن يجرموا ، ثم يقولوا : طالما أننا لا نقع تحت ظائلة المسؤولية لا من قريب ولا من بعيد ، فنفعل ما نشاء ، فيضرون أنفسهم ، ويضرون غيرهم تحت سمع القانون وبصره .

المبحث الخامس : مفهوم الوقاية من الجريمة :

الوقاية من الجرائم هي الأساس في علاج المجتمع ، فقد اهتمت بذلك السنة النبوية ، حيث لم تجعل العقاب هو الوسيلة الأولى للعلاج فقط ، بل قدمت له بمقدمات وقائية قبل الوقوع في العقوبة .

والوقاية : أن يجعل المسلم بينه وبين ما يضر وقاية ، ومن معاني الوقاية في اللغة : الحفظ والصيانة والحماية ، يقال : وقى الشيء : صانه عن الأذى وحماه ، قال الله تعالى : ﴿ فَوَقْنَهُمْ اللَّهَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾^(٣) ووقى الأمر : أصلحه^(٤) .

ويمكن تعريف الوقاية من خلال المعاني اللغوية السابقة ، فنقول : الوقاية هي اتخاذ التدابير اللازمة التي تحفظ وتصون المرء من الوقوع فيما يضر بنفسه أو غيره أو بهما معاً .

(١) انظر : شرح قانون الأحوال الشخصية لفريد فتیان ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) سورة الإنسان : ١١ .

(٤) انظر : المعجم الوسيط ، مادة وقى .

وتبعاً لما عرّفنا به الوقاية ، فإنه لا يقتصر التعريف على مجرد البعد عن الأشياء الحسية ، بل البعد أيضاً عن الأشياء المعنوية التي تلحق ضرراً بقلب الإنسان أو بعقله أو بدينه ، وهي في حدود الضروريات الخمس ، يعني ليست مخصوصةً بالبدن فقط ، إنما تتناول البدن والدين والنسل والعرض والمال . هذا هو مفهوم الوقاية من الجريمة .

المبحث السادس : ثمرات الوقاية من الجريمة :

سأتناول الحديث عن ثمرات الوقاية من الجريمة تفصيلاً وإجمالاً :

أما تفصيلاً : فهي على النحو التالي :

١ - حماية النفس والمحافظة عليها وعدم الوقوع في الجريمة ، سواء كانت نفس الشخص ، أو نفس غيره ، أو هما معاً ، فيؤدي ذلك إلى الأمن والاستقرار النفسي ، وهذا يعني القضاء على الجريمة ، ومكافحتها أو تخفيفها بكل صورها وأشكالها ، على أن العلماء ذكروا أن حفظ النفس يكون بترتيب القصاص ، للاعتداء على النفس عمداً ، والدية للاعتداء عليها خطأ .

٢ - حماية المال وحفظه في المجتمع وتنميته والعمل على زيادته ، ليزدهر الاقتصاد ، وتنشط التجارة والصناعة والزراعة وغيرها ، وليعم الرخاء ، فإننا نقضي على الرشوة والربا والغصب والسرقه والنهب ونحوها من الأخلاق الرذيلة ونشيع المعاملات المشروعة ، على أن العلماء ذكروا أن حفظ المال يكون بترتيب حد السرقة والحراقة .

٣ - وقاية العقل من التسيب والانهيال ، فالجتمعت المتصف بالعقل ، معناه أنه يتصف بالحكمة والرؤية فتكون قراراته صائبة وأفعاله سليمةً سديدة ، لذلك عاقب الإسلام شارب الخمر ، لأن في شربه له إذهاباً لعقله ، على أن العلماء قالوا إن حفظ العقل ، يكون بترتيب حد شرب الخمر .

٤ - حفظ العرض من الانتهاك ، والنسل من الاعتداء على الحياة الزوجية ، وتحريم العلاقات خارج الزواج ، لذا منع الإسلام الزنا ، لأنه يؤدي إلى اختلاط الأنساب

وإضاعة الأولاد ، ويعكر الحياة الزوجية ، بل يقضي عليها ويقضي أيضاً على النسل والنوع الإنساني ، على أن العلماء قالوا : إن حفظ العرض يكون بترتيب حد القذف والزنا .

٥- حفظ الدين : والمقصود بحفظ الدين كما هو معروف : المحافظة على أحكام وأركان الشريعة ، وحفظها من الاستهزاء والسخرية والعبث ، لذا قرر الإسلام حد الردة ، للذين يعتدون على الدين أو يستهزئون به ، أو يصدون عن سبيله .

وهذه الخمسة التي ذكرتها ، هي المقاصد الخمسة المعروفة التي نزلت كل الشرائع السماوية بحفظها وحمايتها .

وأما جملة : فإن الوقاية من الجريمة تؤدي إلى القضاء عليها تماماً أو على الأقل تخفيفها أو تقليصها ، الأمر الذي يؤدي إلى حياة النفوس وترباط المجتمع وتماسكه ، فيؤدي المجتمع دوره وواجبه في الأرض ويأخذ مكانه اللائق .

الفصل الثاني

أسباب الوقوع في الجريمة

« وطرق الوقاية منها في ضوء السنة النبوية »

يمكن ردُّ كل أسباب الوقوع في الجريمة ، إلى سبب أساسي ، ألا وهو البعد عن الدين ، ثم يتفرع عن هذا السبب أسباب أخرى كثيرة فرعية ، سنتناولها بالشرح والتحليل ، مراعين الاختصار والإيجاز قدر الطاقة والإمكان ، ودونك البيان .

السبب الأول: ضعف الوازع الديني والأخلاقي (وهو الأكبر والأساسي) :
حقيقة النفس البشرية أنها مخلوقٌ له حاجاتٌ متعددة ، لأنه يجمع بين الطين والنفخة الإلهية ، وهي الروح ، ولكل حاجاته ومطالبه ، ولا بد من التوفيق بينهما ، بحيث لا يطغى جانبٌ على جانب .

وقد ينسى الإنسان ذلك ، فتسول له نفسه أن يقع في الجريمة ، لكن كيف والرقباء عليه كثيرون من أفراد المجتمع أو الحاكم ؟ إن نفسه لتسوّل له أن يخدع هؤلاء جميعاً ، فيبتكر من أساليب الخيل والخداع ما ييسر له سبيل الوقوع في الجريمة ، لكن إذا قوي الوازع الديني والأخلاقي ، المتمثل في سلامة الفطرة والعقل الراشد ومراقبة الله فإنه يكفُّ عن ذلك .

من هنا كان من الأسباب الأساسية للوقوع في الجريمة : ضعف الوازع الديني والأخلاقي ، وقد عبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ... »^(١) ، ويقول: « إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان وكان عليه كالظُّلَّة ، فإذا انقلع رجع إليه الإيمان »^(٢) .

والوقاية هي : تقوية الوازع الديني والأخلاقي وتمكينه من النفس ، ويتحقق ذلك بالأساليب التالية :

(١) رواد مسلم في الإيمان : باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (٧٦/١) ، رقم (١٠٠) من حديث أبي هريرة .
(٢) رواه أبوداود في كتاب السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٦٣٤/٩) ، رقم (٤٦٩٠) ، والحاكم في المستدرک (٢٢/١) ، في كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

١- التذكير بجمعية الله التي لا تفارق العبد أبداً : قال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ ^(١) .

٢- تهيئة الصحبة الصالحة : كما قال ﷺ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي » ^(٢) .

٣- تطبيق شرع الله تعالى : إن الإسلام يُشرعُ لمجتمعٍ مسلمٍ ، أسلم نفسه لله تعالى وارتضى حكم الله في جميع شئون حياته ، لذا نجد الجريمة فيه نادرة جداً ، لأنه ربى أفرادَه تربيةً إسلاميةً صحيحةً ، فكانوا بذلك مسلمين حقيقَةً ، لا إسلام وراثَةً وتقليد ، أو إسلام ثرثرة وكلام ، فليس الإيمان بالتمني ، ولكن الإيمان الحقيقي هو ما وقر في القلب وصدقه العمل .

٤- التذكير بالعاقبة والمصير : وقد دلت السنة النبوية على ما دل عليه القرآن

الكريم من أن الإيمان بالله تعالى ورسوله وباليوم الآخر ، سببُ الطاعة وفعل الخير ، والبعد عن المعصية والشر ، يقول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » ^(٣) ، ويقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ^(٤) ، فالمؤمن لا يتركه إيمانه يسعى في إيصال الشر إلى الناس ؛ لأنه لا يحب الشر لنفسه ، وإنما يحب لنفسه الخير ، والخير الذي يحبه لنفسه يحبه لغيره ؛ لأنه ناشئ من إيمانه .

(١) سورة الحديد : ٤ .

(٢) رواه أبو داود في الأدب : باب من يؤمر أن يجالس (٦٧٥/٢) ، رقم (٤٨٣٢) ، والترمذي في الزهد : باب ما جاء في صحبة المؤمن (٢٧/٤) ، رقم (٢٥٠٦) . ورواه الدارمي في الأُطعمة : باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء (١٠٣/٢) ، وأحمد في المسند (٣٨/٣) ، وابن حبان في صحيحه (موارد الظمان رقم ٢٠٤٩) ، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري . وسكت الترمذي على الحديث ، وقال النووي في رياض الصالحين ص ١٧٨ ، رقم (٩٦٤) : « رواه أبو داود والترمذي بإسناد لا بأس به » .

(٣) رواه البخاري في الأدب : باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٥٤٦/١٠) ، رقم (٦٠١٨) من حديث أبي هريرة .

(٤) رواه البخاري في الإيمان : باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٧٨/١) ، رقم (١٣) ، ومسلم في الإيمان : باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٦٧/١) ، رقم (٧١) ، كلاهما من حديث أنس ، واللفظ للبخاري .

فالسنة النبوية لم تعتمد إلى وضع طرق الوقاية من الجريمة فقط ؛ لأن الاعتماد على هذا الجانب وحده لا يكفي ، بل لا بُدَّ من رادع آخر يمنع الناس من الوقوع في الجرائم والمحظورات ، وهذا الرادع هو غرس الإيمان في قلب الإنسان .

السبب الثاني : الفراغ :

وهو عدم شغل الوقت بالنافع والمفيد . والوقاية منه : هو ملء الفراغ بالنافع والمفيد . إن الفراغ قد يكون نعمة ، إذا ملئ بالصالح من الأقوال والأفعال ، وقد يكون نقمة ، من حيث إهماله والإعراض عنه ، لأنه جزء من حياة الإنسان ورأس ماله ، وقد جاء في الحديث : « نعمتان مغبوتان فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » ^(١) . وقد أخبر النبي ﷺ بأن الإنسان مسؤول عن أوقاته في حياته ، فيقول : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن : عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » ^(٢) .

وأخبر أيضاً بنزع البركة من الأعمار ، ولعل من مظاهرها عدم ملء هذا الفراغ بالنافع والمفيد ، يقول ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، وتكون السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، وتكون الجمعة كالיום ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كالضربة ^(٣) بالنار » ^(٤) .

وحدث ﷺ على استغلال الوقت والحرص عليه ، فقال : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » ^(٥) .

(١) رواه البخاري في الرقاق : باب ما جاء في الرقاق (٢٧٥/١١) ، رقم (٦٤١٢) من حديث ابن عباس .

(٢) رواه الترمذي في أول أبواب صفة القيامة : باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٣٦/٤) ، رقم (٢٥٣٢) ، من حديث أبي برزة الأسلمي ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) الضربة : الجمرة كما في المعجم الوسيط ، مادة ضرم .

(٤) رواه الترمذي في الزهد : باب ما جاء في تقارب الزمان وقصر الأمل (٣٨٨/٣) ، رقم (٢٤٣٥) ، وقال : « هذا حديث غريب » .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک ، كتاب الرقاق (٣٤١/٤) ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي .

ونظراً لأهمية الوقت ، فقد عالج الإسلام الممثل في السنة النبوية هذه الظاهرة ، بحيث ملأت الفراغ بالنافع والمفيد ، وهناك صور كثيرة ملء هذا الفراغ ، فمنها :

١- تنظيم الرحلات وإقامة المخيمات الكشفية : ويمكن الاستفادة مما يعرف بالسرايا في العهد النبوي ، فإنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة وضع نظاماً لحماية الدولة الناشئة الجديدة من خطر العدو الداخلي والخارجي ، فأنشأ نظام السرايا ، بأن يكلف جمع من الناس وعليهم أمير بمهمة تتمثل في :

أ- استكشاف الأرض المحيطة بالدولة ومن يتحركون فوقها .

ب- تعويدهم الصبر والتحمل .

ج- شغل أوقات الفراغ لديهم بالنافع والمفيد ، وإلا تحولت هذه الأوقات إلى أداة هدم للأفراد والمجتمع .

د- إرسال رسائل صامدة لقريش ، بأن تكف عن أذى المسلمين وملاحقتهم إذ هم اليوم غيرهم بالأمس ، وكل ذلك يمكن أن يظهر للباحث من خلال دراسة سرية عبد الله بن جحش وغيرها من السرايا التي كانت في العهد النبوي ^(١) .

٢- تخصيص أماكن لممارسة الألعاب الرياضية : وهو ما يعرف اليوم باسم الملاعب والأندية الرياضية ، وكان النبي ﷺ يحدد لأصحابه خارج المسجد غرضين يعدون بينهما جرياً أو ركوباً للدواب أو بممارسة الرماية ، وأكد ذلك ﷺ بقوله : « كل ما يلهم به الرجل المسلم باطل إلا رمية بقوس ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهن من الحق » ^(٢) .

(١) انظر تفصيل هذه السرايا وأهداف منها في كتاب : سبل الهدى والرشاد ل محمد بن يوسف الصالحى ، (٩/٦-٣٧٨ ، وما بعدها) ، إذ كله حول السرايا وأهدافها جملة وتفصيلاً .

(٢) رواه أبو داود في الجهاد : باب الرمي (١٦/٢) ، رقم (٢٥١٣) ، والترمذي في الجهاد : باب ما جاء في فضل الرمي (٩٥/٣) ، رقم (١٦٨٧) ، والنسائي في الخيل : باب تأديب الرجل فرسه (٢٢٩/٦) ، وابن ماجه في الجهاد : باب الرمي في سبيل الله (٩٤٠/٢) ، رقم (٢٨١١) ، وأحمد في المسند (١٥٤/٤) ، والحاكم في المستدرک (٤١٧/١-٤١٨) ، وصححه ووافقه الذهبي . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

٣- التنزه بين الأشجار وعلى الشواطئ ، بين الماء والخضرة ، وهو ما يعرف الآن بالرحلات إلى الحدائق والأنهار والبحيرات ونحوها ، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه ذهب إلى بئر أريس بالمدينة ، وقد وضع رجله في الماء كاشفاً عن ساقيه ، وكان يتبعه أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان^(١) .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك صور أخرى . وذلك بتخصيص أماكن لتعليم بعض الأعمال الحرفية « معاهد للتدريب » ، وإقامة المكتبات ، ونشرها في كل الأحياء ، تشجيعاً للقراءة والاطلاع ، وأيضاً إنشاء معاهد لحل مشكلة المجتمع البيئية والاجتماعية والاقتصادية ونحوها . وأيضاً تهيئة المؤسسات ، لإحقاق العاطلين عن العمل القادرين عليه بها ، إلى غير ذلك من كل ما يشغل أوقات الفراغ ، وهي كثيرة .

وعلاج هذا السبب : لا تكفيه هذه العجالة ، وإنما يحتاج إلى بحث مطول ، ونحن الآن بصدد إعداده تحت عنوان : « ملء الفراغ بين السنة النبوية وميثاق الفراغ الدولي » .

السبب الثالث : التكالب على الدنيا :

والوقاية منه : التزهيد في الدنيا والحث على التقلل منها .

خلق الله الدنيا ، لتكون ميدان سباق بين بني الإنسان ، يعبرون منه إلى الآخرة ، ولذا لم يحرمها عليهم ، وإنما وضع لتعاطيها قيوداً وضوابط ، منها :

- ١- أن تكون من حلال لا من حرام ، يقول ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً »^(٢) .
- ٢- أن تكون بعزة نفس لا بذل وهوان ، إذ يقول ﷺ : « تعس عبد الدينار والدرهم

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب « لو كنت متخذاً خليلاً ... » (٢٥/٧) ،

رقم (٣٦٧٤) ، ومسلم في فضائل الصحابة : باب من فضائل عثمان (١٨٦٧/٤) ، رقم (٢٤٠٣) .

(٢) رواه مسلم في الزكاة : باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (٧٠٣/٢) ، رقم (٦٥) ، من حديث أبي هريرة .